

طريق الحياة

طريق الحياة

أ. ج. هوايت

***

دار الشرق الأوسط للطبع والنشر
بيروت - لبنان

الطبعة السادسة

١٩٩٥

يُطلب هذا الكتاب وأمثاله من الكتب الدينية القيّمة من المصادر التالية: ص.ب ٩١٠٢٨ – بيروت – لبنان؛ ص.ب ١٢٩٠– بغداد – العراق؛ ص.ب ٢٤٠٤ – عمّان – الأردن؛ ص.ب ١٢–هيليوبوليس–مصر

المقدمة

ما من كتاب حظي بهذا الكم الهائل من النسخ المطبوعة والتي تقدر بالملايين، وكان له وقع عظيم في رفع شأن الإنسانية عالياً مثل كتاب طريق الحياة. وحيثما ترجم وطبع فقد أثرى حياة ملايين الرجال والنساء حول العالم بالايمان والرجاء والمحبة.

ومؤلفة هذا الكتاب السيدة الن هوايت هي كاتبة مُلهمة خطّت بقلمها عشرات الكتب وما يزيد عن خمسة الآف مقالة دورية في مواضيع شتى دينية، وثقافية، وعائلية، وصحية. ومن بين جميع مؤلفاتها يُعتبر كتاب طريق الحياة الأكثر رواجاً في العالم.

إن المواضيع الروحية التي يتناولها هذا الكتاب تُبرز شخصية السيد المسيح القادر على تلبية احتياجات النفس، وتقود المتشككين نحو درب اليقينية والسلام. كما توجه الساعي نحو النور إلى شمس البر لتضيء حياته بالايمان والبركة في تسليم كامل لله. ويُوضح هذا الكتاب سر الانتصار بنعمة الفادي وقوته الحافظة بوصفه صديق الانسانية المخلص العظيم يسوع المسيح له المجد.

يسرنا أن نزف إلى القُراء الكرام في اصقاع العالم العربي وفي كل مكان يتواجد فيه الناطقون بالعربية هذه الطبعة الجديدة المنقحة من كتاب طريق الحياة.

ولقد توخينا فيهـا بسـاطة اللغـة مـع مُراعـاة الدقـة فـي الالـتزام بالأصل الانكليزي. ونرجو أن تكـون هـذه الحقـائق الروحيـة الثمينة دانية القطوف لخاصة القراء وعامتهم على أحسن وجـه وأتم مرام.

نضرع إلى المولى القديـر أن يزيدنـا قُربـاً مـن الخـالق العظيـم وعمقاً في علاقاتنا معه وثباتاً في ايماننا به وصـولاً إلى الطريق والحق والحياة. وأن يجعل من هذا الكتاب بركة لقـراء العربيـة كما جعله بركة لملايين الناس في أكثر من ١٣٥ لغة.

الفهـرس

محبة الله للإنسان

تشهد الطبيعة شهادة الوحي بأن "الله محبة"، فأبونا السماوي هو مصدر الحياة ومنبع الحكمة والفرح. تأمل مثلا جمال الطبيعة وعجائبها، ولاحظ ملاءمتها لجميع حاجات الإنسان والحيوان ولسعادة كل الكائنات الحية. فالشمس والمطر اللذان ينعشان الأرض ويجددان وجهها، والجبال والبحار، والسهول والأنهار التي تبهج الأبصار - كلها تحدثنا بمحبة صانعها الذي يرزق كل حي في كل آن ومكان. ولقد أنشد في ذلك المرنم قائلا:

عيون الكل لا ترجو سواكا   لتمنحهم طعاما من نداكا
تمد يديك نحو الخلق طرا   فتشبع كل حي من رضاكا
مزمور ١٤٥: ١٥و١٦

خلق الله الإنسان بارا سعيدا، وصنع له الأرض الجميلة التي كانت خالية من كل لعنة عندما خرجت من يدي الله بريئة من كل فساد. أما اللعنة والموت فقد جلبهما التعدي على ناموس الله - ناموس المحبة. غير أن الآلام التي أثمرتها الخطية لم تَحُل دون إظهار محبة الله، بل كما هو مكتوب، "ملعونة الأرض بسببك" تكوين ٣: ١٧ أي لأجلك. فما الحسك والأشواك، متاعب الحياة وصعابها، التي تجعل حياة الإنسان حياة كد وتعب، ماهي إلا لخير الإنسان ووسائط يستخدمها الله لرفعه من وهدة الخطية وانقاذه من نتائجها الأليمة. فلئن كان

العالم قد أضحى خاطئا أثيما، ليس المعنى أن كل مافيه محض شقاء وعناء. فالطبيعة لم تزل تحمل رسائل الرجاء والعزاء، إذ إن حسكها تعلوه الأزهار، وأشواكها تكسوها الورود.
إن آيات هذه المحبة لمسطورة على كل كم من أكمام الأزهار الفواحة العطر وعلى كل ورقة من أوراق الأشجار، وفي أناشيد البلابل وأغاريد العصافير التي تملأ الجو بشدوها – هذه جميعها تشهد لعناية الله بنا وتعلن رغبته الأبوية في اسعادنا طُرا.

غير أن اعلان الطبيعة مع مافيها من آيات بينات لم يكن كافيا للإنسان لذلك أعطانا الله كلمته التي تُظهر صفاته، فهو تعالى أعلن عن محبته اللامتناهية وشفقته. فعندما صلى موسى قائلا لله "أرني مجدك" أجاب الله "أجيز كل جودتي قدامك" خروج ٣٣: ١٨و١٩. فاجتاز الرب قدام موسى ونادى قائلا: "الرب الرب إله رحيم ورؤوف، بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء، حافظ الإحسان الى ألوف، غافر الإثم والمعصية والخطية" خروج ٣٤: ٦و٧، ثم بقوله للنبي يونان، لأنه "بطيء الغضب وكثير الرحمة"، يونان ٤: ٢، وأيضا للنبي ميخا "فإنه يُسر بالرأفة"، ميخا ٧: ١٨. إن هذا هو مجده تعالى.

وهكذا عمل الله على اجتذاب قلوبنا اليه بآيات لا تُحصى مما في السماء وما على الأرض. فقد جرّب أن يُعلن ذاته لنا في الطبيعة وبانتسابه الينا بأعز روابط القربى وأوثقها، وإن كانت هذه تمثل محبته تمثيلا مبتورا. وعلى رغم كل تلك الدلائل التي أعطانا، استطاع الشيطان أن يعمي البصائر والأذهان وأن

يجعل الناس ينظرون الى الله نظرة تخوف وتهيب، وييأسون من عفوه ورحمته، ويرون فيه إلها قاسيا لا يرحم ولا يشفق، يحصي على الناس زلاتهم، ويرقب عوراتهم وسيئاتهم ويتربص بهم الدوائر لكي يوقع بهم وينتقم منهم. فلأجل إزالة هذه النظرة المظلمة، ولكي يعلن لنا محبة الله الفائقة الوصف، جاء يسوع من السماء وحل بين الناس.

أجل، من السماء جاء ابن الله ليعلن لنا الآب، لأن "الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر"، يوحنا ١: ١٨. "ولا أحد يعرف الآب الا الابن، ومن أراد الابن أن يعلن له" متى ١١: ٢٧. وحين سأله أحد تلاميذه قائلا، "ياسيد أرنا الآب وكفانا" أجابه يسوع "أنا معكم زمانا هذه مدته ولم تعرفني يافيلبس، الذي رآني فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت أرنا الآب" يوحنا ١٤: ٨و٩.

لقد وصف يسوع رسالته ومهمته على هذه الأرض فقال، "روح الرب عليّ لأنه مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية" لوقا ٤: ١٨. هذا كان عمله، "فجال يصنع خيرا ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس" أعمال ١٠: ٣٨. فكم من قرى عَمّها البر والبرء، وكم من ضياع نالت الشفاء والعافية لأن يسوع كان قد اجتاز في وسطها، فشفى مرضاها وتحنن على صرعاها. فحيثما سار يسوع ابن الإنسان، سارت في ركابه المحبة والرحمة والحنان، وكفى شاهدا على حبه وعطفه أنه قد اتخذ طبيعتنا وصار مثلنا

في كل شيء ماعدا الخطية، مما شجع الخطـاة المنبوذين علـى الدنو منه والتحدث اليـه، وجعـل حتـى الصغـار يلتفـون حولـه، ويأنسون به ويتفرسون في مايبدو على محياه من علامات الجد والاهتمام، ودلائل الحب والإنعام.

لقد حرص يسوع على أن يُعلن الحـق كلـه، دون أن يكتـم منـه شيئا، أو يخشى فيه لومـة لائـم. ولكنـه فعـل ذلـك دومـا بـروح المحبة. وكان في مخالطته الناس يوليهم أكبر جانب من عنايتـه واهتمامه ويراعي معهم كل ماتقتضيه واجبات اللياقـة واللباقـة. فما عامل أحدا بالغلظة قط، ولا تفـوه بكلمـة موجعـة، ولاعمـل على إيلام مخلوق بدون داع أو مُوجب، ولا راقب زلات العباد وسقطاتهم. ومـع ذلـك فإنـه لـم يـتردد قـط فـي مكاشـفة النـاس بالحقيقة في صراحة وشجاعة منذرا إياهم في ترفق ووداعة.

فقد نعى على الناس نفاقهم، ودان عدم إيمـانهم وآثـامهم، ولكنـه كان دائما يمزج تحذيراتـه وتوبيخاتـه بدموعـه وعبراتـه. ومـن ذلك أنه بكى على أورشليم المدينة التي أحبها، مع أنها لم تقبله، وهو الطريق والحق والحياة. ولقد عامل قومه بكل رفق وحنان مع أنهم رفضـوه، فرفضـوا بذلـك عونهـم وخلاصـهم. اتسـمت حياته بنكران الذات والرعاية المضحية للآخرين. وكان، مع ما له من العزة الربانية والكرامة الآلهية، ينظـر الـى كـل مخلـوق ينتمي الى أسرة الله بعين الإكبار والاعتبار، لأن كل نفس مـن نفوس العباد كانت حبيبة إليه عزيزة عليه. بل كـان يتطلـع هـو الى كل إنسان فيرى فيه نفسا ثمينة قد وُكل إليه من السماء أمر تخليصها وإنقاذها.

تلك هي صفات المسيح كما تجلت في حياته، وهي بعينها صفات الآب تعالى، فإنه من قلب الله تدفقت جداول المراحم الآلهية لبني البشر بواسطة المسيح، فيسوع الرؤوف العطوف، إنما هو "الله ظهر في الجسد". ١تيموثاوس٣:١٦.

ولئن كان يسوع قد عاش وتألم ومات، وصار رجل أوجاع ومختبر الحزن فما ذلك كله إلا لكي يفتدينا ويجعلنا شركاءه في الأفراح الأبدية. وهكذا سمح الله تعالى بأن ينزل ابنه الحبيب، مملوءا نعمة وحقا، من عالم المجد الفائق الى عالم ملوث بالإثم، وموبوء بالخطية، الى أرض قد جللها سواد الموت، وغشتها أشواك اللعنة. بل هكذا سمح الله لابنه الوحيد أن يترك أحضان المحبة الأبوية، ومايحف به من العبادات الملائكية، لكي يأتي الى بني البشر حيث هم، محتملا منهم العار والهوان والكراهية والنكران. وفي النهاية مات ميتة المذنبين المجرمين، لأن "تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا" إشعياء ٥٣: ٥.

تطلع إليه وهو في جثسيماني، وهو على الصليب. فهذا ابن الله القدوس الذي لم يعمل ظلما ولم يكن في فمه غش، قد ناءت كاهلاه تحت أعباء اللعنة وأثقال الخطية. ثم انظر إليه ثانية، فترى ابن الله الذي كان في اتحاد تام مع الآب وقد أصبح يشعر بتلك العزلة الرهيبة، والهوة السحيقة التي تفصل الإنسان الخاطئ عن الله، مما جعله يصرخ صرخة متألم متوجع قائلا: "إلهي إلهي لماذا تركتني" متى ٢٧: ٤٦. إن شعوره بفداحة عبء الخطية، وإدراكه لهول جرمها، وإحساسه بانفصام عُرى

الشركة بين النفس والله كانت هي الأمور التي عملت على سحق قلب ابن الله الحبيب.

على أن هذه التضحية العظمى لم يأتها الابن ليخلق في قلب الآب محبة للإنسان، ولم يقصد بها أن يجعل عند الآب الرغبة في العمل على خلاص الإنسان. كلا، "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد" يوحنا ٣: ١٦. فالكفارة، إذن، لم تكن هي علة المحبة التي أحبنا بها الآب، وإنما الآب أحبنا فأعدّ لنا الكفارة. وكان المسيح هو الواسطة التي بها سكب الله محبته على عالم قد ضل وهوى، إذ "ان الله كان في المسيح مصالحا العالم لنفسه"، ٢ كورنثوس ٥: ١٩. ففي الآلام التي جاز فيها في بستان جثسيماني، وعلى صليب العار في جلجثة، تألم الآب مع ابنه، ودفعت المحبة ثمن فدائنا غاليا.
وليس أدل على محبة الآب لنا مما نطق به يسوع نفسه في قوله: "لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي لآخذها أيضا" يوحنا ١٠: ١٧. فكأني به يقول: لقد أحبكم أبي للدرجة التي زادت محبته لي وتقديره إياي لكوني قد بذلت حياتي لأفتديكم طائعا مختارا. ورضيت بأن أكون بديلكم وكفيلكم بتسليم حياتي، حاملا ذنوبكم وموفيا ديونكم. لأنه بفضل ذبيحتي الفدائية، وأعمالي الكفارية، أمكن الله تعالى أن "يكون بارا ويبرر من هو من الإيمان بيسوع" رومية ٣: ٢٦.

لم يستطع أن يفدينا غير ابن الله، إذ لم يقدر أن يعلن الله غير الذي كان في حضنه، الذي وحده استطاع أن يظهر محبته لأنه سبر غورها وبلغ ذراها. لا شيء أقل من الذبيحة اللامتناهية

التي قام بها المسيح لأجلنا، يمكن أن تعبر عن محبة الآب للبشرية الهالكة.

"لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد" يوحنا ٣: ١٦. وقد بذله؛ لا لكي يعيش بين البشر، ويحمل خطاياهم، ويموت ذبيحة عنهم، فحسب، بل وهبه للجنس البشري هبة، فصارت شؤونهم شؤونه، وحاجاتهم حاجاته. فالذي هو واحد مع الآب ارتبط بالبشرية ارتباطا لا تنفصم عراه أبدا. فهو "لايستحي أن يدعوهم إخوة" عبرانيين ٢: ١١. لأنه هو ذبيحتنا، بل شفيعنا بل أخونا، يحمل صورتنا كابن الإنسان وهو على عرش الآب. فهو الى الأبد واحد مع الجنس الذي فداه بدمه. وقد صار ذلك كله لأجل رفع الإنسان من وهدة الخطية وخرابها الى الاشتراك في فرح القداسة والى إعلان محبة الله للعالمين.

إن ثمن فدائنا الذي دفع، أي تضحية أبينا السماوي اللامحدودة في بذل ابنه ليموت لأجلنا، يجب أن يمنحنا إدراكا أسمى لما قد نصبح عليه في المسيح. فالرسول الملهم، يوحنا الحبيب، إذ أدرك شيئا من علو محبة الله وعمقها وعرضها، امتلأ بالهيبة والوقار وعجز عن إيجاد كلمات بها يعبر عن عظمة هذه المحبة لجنس هالك. فدعا الجميع للتأمل فيها قائلا، "انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله" ١ يوحنا ٣: ١. فما أعظم مقام الإنسان نتيجة لهذا الفداء. فبنو الإنسان الذين قد صاروا بالمعصية رعايا إبليس، يصيرون بالإيمان بذبيحة المسيح الكفارية أبناء الله. بتجسده رفع يسوع شأن البشرية

وجعل الخطاة الهالكين في مركز يستحقون فيه اللقب السامي العظيم "أولاد الله".

إن هذه المحبة منقطعة النظير، أن تكون أولادا لملك السماء. إنه لوعد ثمين وعهد كريم، وموضوع يستحق التأمل العميق – موضوع محبة الله القدير لعالم لم يحبه. إن لهذه الفكرة، إذا استغرق المرء فيها، قوة على اخضاع النفس، وقدرة على استئسار الذهن لإرادة الله، لأن التأمل في صفات الله، في ضوء الصليب، ليُعلن لنا الرحمة والشفقة والمغفرة، متحدة بالعدالة والبر والقداسة، وليجلو لنا آثار حب لا حد له، يفوق محبة الأم وحنانها على ولدها التائه الشريد.

الفصل الثاني

حاجة الخاطئ للمسيح

لقد خص الله الإنسان، حين خلقه، بقوى سامية وعقلية متزنة، فكانت حياته حياة الكمال والتوافق مع الله. وكانت أفكاره طاهرة، وأغراضه مقدسة. ولكنه مالبث أن عصى ربه وخالف أمره. فحلت فيه الإثرة والأنانية محل الإيثار والتضحية وبات ضعيفا عاجزا لا يقوى على مقاومة سلطان الخطية وتأثيرها بجهوده الذاتية وقوته الشخصية. لقد أسره الشيطان، ولولا أن الله تعالى لطف بالإنسان وتدخل في أمره، لأبقاه الشيطان أبد الدهر في قبضته وأسره. كان قصد المجرب أن يعطل تدبيرات الله، ويحول دون تحقيق مقاصده السامية بشأن الإنسان فيملأ الأرض علقما وصابا، ويجعلها بلقعا وخرابا. حتى إذا تم له ما أراد، نسب كل هذا البلاء المرير والشر المستطير الى الله تعالى، لأنه خلق الإنسان وخصّه بمثل هذا الكيان والوجدان.

فالإنسان في براءته كان يتصل اتصالا بهجا "بالمذخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم" كولوسي ٢: ٣. أما وقد أخطأ فلم يعد يرى في الطهارة لذة وسرورا أو في محادثة ربه فرحا وحبورا، بل حاول أن يتوارى ويختبئ من حضرة الله. وهذه حالة كل إنسان لم يتجدد بعد إذ إنه لا يكون في حالة وئام مع الله، ولا يشعر بفرح في الاتصال به والتحدث إليه. فالخاطئ لا يمكنه أن يكون سعيدا وهو في حضرة الله كما أنه ينفر من معاشرة ساكني السماء. فلو أتيح له أن يدخل السماء، لما بعث

ذلك فرحا في نفسه، لأن نفسه لا تطرب لروح الإيثار الذي يسود سكان السماء. وقلبه لا يتجاوب مع قلب المحبة العظمى. فضلا عن أن اهتمامه، وأفكاره، ودوافعه، تبدو غريبة ومناقضة لبواعث أولئك البررة الأطهار. فهو إذن يكون كنغمة ناشزة في لحن السماء، بل تكون السماء له مكان ألم وتعذيب حتى ليود أن يختبئ من ذاك الذي هو مصدر نورها ومبعث بهجتها وحبورها. فليس حرمان الأشرار من دخول السماء أمرا مقضيا به من الله، بل عدم صلاحيتهم لها هو الذي يحول دون دخولهم اليها، إذ إن مجد الله يكون لهم نارا آكلة، حتى أنهم ليلتمسون الهلاك التماسا تواريا من وجه ذاك الذي مات لكي يفتديهم.

إنه ليستحيل علينا أن ننقذ أنفسنا من هوة الخطية التي ترديتا فيها. فقلوبنا شريرة وليس في استطاعتنا أن نغير مابها، كما يصف ذلك أيوب في قوله: "من يُخرج الطاهر من النجس؟ لا أحد". أيوب ١٤: ٤. وكقول الرسول بولس: "لأن اهتمام الجسد هو عداوة لله إذ ليس هو خاضعا لناموس الله، لأنه أيضا لا يستطيع" رومية ٨: ٧. أما وسائل التربية والتعليم، والتهذيب والتثقيف، وتدريب الإرادة، وما الى ذلك من الجهود البشرية التي تبذل في سبيل ترقية الإنسان، فهذه كلها لها قيمتها ومكانتها في نواح أخرى من الحياة، لكنها في هذا الموضوع بالذات عديمة الجدوى. فهي قد تكون ذات تأثير في تحسين سلوك الإنسان وصقله من الخارج، ولكنها لن تقوى على تغيير قلبه وتطهير بواعثه وأفكاره. لأن الانتقال من حياة الخطية والرذيلة، الى حياة القداسة والفضيلة، يستلزم حتما قوة تعمل

على تغيير الانسان من الداخل. ويقتضي حياة جديدة يؤتاها الإنسان من فوق. وهذه القوة هي المسيح، فان نعمته وحدها هي التي تحيي النفس المائتة، وتجتذبها نحو الله، وتستميلها الى حياة القداسة والكمال.

وقد قال المخلص: "إن كان أحد لا يولد من فوق"، أي أنه ما لم يحصل الإنسان الخاطئ على تجديد في قلبه وأفكاره، ورغائبه وبواعثه صوب حياة جديدة، فانه "لا يقدر أن يرى ملكوت الله" يوحنا ٣:٣. فالفكرة في ان الحاجة الوحيدة إنما هي الى تنمية التقوى الفطرية والصلاح الطبيعي الكامنين في نفوسنا، ان هي إلا خدعة مميتة، لأن "الإنسان الطبيعي لا يقبل مالروح الله لأنه عنده جهالة. ولا يقدر أن يعرفه لأنه انما يحكم فيه روحيا" ١ كورنثوس ٢: ١٤. "لا تتعجب أني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق" يوحنا ٣: ٧. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن المسيح وحده هو المكتوب عنه "فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس" يوحنا ١: ٤. وأيضا "ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص" أعمال ٤: ١٢.

فلا يكفي أن نشعر برحمة الله، وندرك ماتنطوي عليه صفاته من الجود والحنو الأبوي. ولا يكفي أن ندرك حكمة الناموس وعدالته، وندرك أنه قائم على مبدأ المحبة الأبدي. فبولس الرسول، كان مدركا لهذه كلها حين قال "فإني أصادق الناموس أنه حسن" رومية ٧: ١٦، وأنه "مقدس والوصية مقدسة وعادلة وصالحة" رومية ٧: ١٢. ولكنه مضى يقول أيضا وهو في مرارة الألم واليأس "أما أنا فجسدي مبيع تحت الخطية" رومية

٧: ١٤. كان بولس الرسول يتوق الى البر والطهارة. ولكنه كان عاجزا في نفسه عن بلوغهما، مما جعله يصرخ قائلا: "ويحي أنا الانسان الشقي. من يُنقذني من جسد هذا الموت" رومية ٧: ٢٤. ولقد ردد مثل هذه الصرخة، في كل الأعصار والأمصار كثيرون من ذوي القلوب المثقلة بالخطية، ولم يكن لهم من جواب سوى ما جاء عنه: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم" يوحنا ١: ٢٩.

كثيرة هي الصور والرموز التي بها التمس روح الله تمثيل هذه الحقيقة لتكون واضحة جلية لكل من يتوق الى التحرر من عبء الخطية. ومن تلك الصور ما أعلنه الله ليعقوب حين هرب من بيت أبيه على أثر مخادعته لأخيه عيسو. فقد كان يعقوب ينوء بذنبه ويرزح تحت ثقل إثمه، حتى أن تخوفه من خطيته طغى على كل ماكان يشعر به من الفراق والبعاد، والحرمان والانفراد. وكان جُل مايخشاه أن تؤدي خطيته الى فصله عن الله، واقصائه عن السماء. وبينما هو على هذه الحالة من الحزن والكآبة استلقى، مفترشا الغبراء، وملتحفا بالعراء، ولم يكن حوله سوى تلال موحشة جرداء. ولما نام طرق عينيه نور غريب، فإذا منظر سلم متسع، بدا له من السهل الذي كان مضطجعا فيه، وكان السلم متجها الى فوق، ومؤديا الى باب السماء، وعلى درجاته يصعد ملائكة الله وينزلون. ومن المجد الأسنى، سمع الصوت الإلهي يردد رسالة العزاء والرجاء، ويعلن ليعقوب ما كان يصبو اليه قلبه، أي أنه تعالى يكون له حافظا ومخلصا. ففي غمرة الفرح والشكر تجلى له الطريق الذي به يستطيع، كخاطئ، أن يسترد

اتصاله بالله، إذ إن السلم الذي ظهر له في الحلم، إنما تمثل المسيح، الوسيط الوحيد، بين الله والإنسان.

والى هذا الرمز عينه أشار المسيح في حديثه مع نثنائيل إذ قال "الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان" يوحنا ١: ٥١. فإن الإنسان إذ عصى الله وارتد عنه، فقد أقصى نفسه عن حضرة الله، فانفصلت بذلك الأرض عن السماء، وصارت بينهما هوة لم يستطع أحد عبورها. ولكن بواسطة المسيح، وبفضل استحقاقاته، أزيلت الهوة التي أحدثتها الخطية، وأعيدت حلقة الاتصال بين الأرض والسماء. فتسنى للملائكة بذلك أن يتخاطبوا مع البشر ويكونوا في خدمتهم. فبالمسيح إذا وبه وحده يُمكن للإنسان الضعيف العاجز أن يجدد اتصاله بمصدر القوة التي لا تحد.

من العبث أن يحلم الناس بإحراز شيء من التقدم والنجاح، ومن الباطل أن يسعوا لرفع شأن الإنسانية، ما داموا مُصرين على تجاهل ذلك المصدر الأعلى، الذي يجب أن تستمد منه البشرية الصريعة كل معونة ورجاء. لأن "كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عند أبي الأنوار الذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران" يعقوب ١: ١٧. ومن العبث أيضا أن يحاول الإنسان التحلي بمكارم الأخلاق وهو بعيد عن المسيح، لأنه ليس من سبيل للوصول الى الله إلا بواسطة ذاك الذي قال عن نفسه "أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي الى الآب الا بي" يوحنا ١٤: ٦.

فقلب الله تعالى توّاق الى أولاده على الأرض لأنه يكن لهم حبا أقوى من الموت. وكفانا آية على هذا الحب العجيب، إن الله قد جمع كل بركات السماء ومزاياها في عطية واحدة ألا وهي عطية الابن الوحيد، تلك العطية التي لا يُعَبَّرُ عنها. فما حياته وموته وشفاعته، وماخدمة الملائكة، وشفاعة الروح وما الآب العامل فوق الكل وفي الكل، وما المخلوقات الروحية وهي في شغل شاغل، ماهذه إلا قوى معبأة، ووسائل مهيأة لخلاص الإنسان خلاصا أبديا.

فلنتأمل في التضحية المدهشة التي بُذلت في سبيل خلاصنا. ولنقدر كل ما جادت به السماء، من جهد وعناء، في سبيل إنقاذ الهالكين واسترجاع الضالين الى حظيرة الآب السماوي. فإنه ما من شيء يخلق فينا بواعث قوية، وحوافز شديدة، مثل التأمل في تضحية المسيح. فهلاً يحفزنا لخدمة سيدنا ومخلصنا ما أعده من أجر وثواب لمن يفعلون الصلاح، وهلا تستهوينا تلك الأفراح السماوية وعشرة الملائكة وشركة ومحبة الآب والابن؟ أم نطلب حياة الرفعة والتسامي، ونرغب في ازدياد قوانا ومواهبنا، واتساع معارفنا ومداركنا مدى أجيال الأبدية؟ أو ليست هذه كلها مما يستحثنا على أن نقدم لخالقنا وفادينا خدمة المحبة القلبية؟

ومن جهة أخرى فإن دينونة الله على الخطية وقصاصها المحتوم، وانحطاطنا الخلقي، والهلاك الأبدي، كلها مقدمة لنا في كلمة الله لتحذرنا من خدمة الشيطان.

أفلا نقدر رحمة الله؟ وأي شيء كان ممكنا أن يعمله أكثر مما فعل؟ فلنسع اذن الى تصحيح موقفنا بالنسبة للذي أحبنا حبا فائقا عجيبا، ولننتفع بالوسائط المقدمة لنا، حتى نتغير الى شبهه، ونعاد الى عشرة الملائكة الخادمين ونصير في وئام وشركة مع الآب والابن والروح القدس.

الفصل الثالث

التوبـــة

كيف يتبرر الإنسان عند الله؟ وكيف يتزكى المذنب؟ إنما بالمسيح وحده نصير في وفاق مع الله، واتساق مع القداسة. ولكن كيف يتسنى لنا أن نأتي الى المسيح؟ كثيرون يسألون هذا السؤال الذي سأله الجمهور في يوم الخمسين إذ "نخسوا في قلوبهم"، فصرخوا قائلين "ماذا نصنع؟" أعمال ٢: ٢٧. وأول كلمة أجاب بها الرسول بطرس كانت قوله "توبوا" أعمال ٢: ٣٨. وما لبث بعد ذلك ان قال في موضع آخر: "توبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم." أعمال ٣: ١٩.

أما التوبة فهي الحزن على الخطية والإقلاع عنها. ولا يقلع عنها المرء ما لم يتبين شرها. ولا يصير تغيير في الحياة ما لم يرجع عنها رجوعا باتا.

غير أن الكثيرين يُخطئون فهم كنه التوبة. فمنهم من يحزن لأنه أخطأ، بل ويحاول إصلاح سيرته إصلاحا خارجيا، لأنه إنما يخشى أن خطيته قد تجلب عليه خسارة وألما. ولكنه بذلك لم يتب توبة بمعنى الكلمة، لأنه إنما يندب الآلام لا الخطية. فشأنه شأن عيسو الذي بعد أن باع البكورية بكى على ضياع بركاتها الى الأبد. وحاله حال بلعام الذي أقر بذنبه، خوفا على حياته حين رأى الملاك يعترض طريقه والسيف السليل بيده. ولكنه لم يتب عن الخطية ولم يبغض شرها، لأنه لم يغير

قصده واتجاهه. وهكذا يهوذا الإسخريوطي، فبعد أن أسلم سيده اعترف قائلا "أخطأت إذ سلمت دما بريئا" متى ٢٧: ٤. فالذي أكرهه على الاعتراف هو شعوره بالإدانة وانتظاره القصاص، لأن العواقب التي لا بد من أن تأتي بها الخطية ملأت نفسه رعبا وقشعريرة. وأما الحزن العميق على انكاره ابن الله البار، والأسف الشديد على خيانته قدوس اسرائيل، فكانت نفسه بريئة منهما. وفرعون كان كلما حلت به ضربة من الضربات يصرخ معترفا بخطئه لكي يُجنب نفسه المزيد من العقاب حتى إذا ما استجاب الله لصراخه ودعائه عاد الى عناده وكبريائه. فهؤلاء جميعهم لم يحزنوا على الخطية ذاتها بل خوفا من عواقبها المؤلمة.

ولكن عندما يستسلم الإنسان لتأثير الروح القدس يحيا الضمير، فيأخذ الخاطيء يُدرك شيئا من عمق الناموس وقدسية الشريعة التي هي قاعدة حكم الله في السماء وعلى الأرض. ويشرق في نفسه "النور الذي ينير كل إنسان" يوحنا ١: ٩ خارقا الى الأعماق وكاشفا خفايا القلب، فيتملك فكر الخاطئ الشعور بالتبكيت والإدانة. ثم يرى بر الله فيعتريه الرعب من الظهور بذنبه ونجاسة قلبه أمام فاحص القلوب ومختبر الكلى. ثم يرى أيضاً محبة الله، وجمال القداسة، وبهجة الطهارة، فيتوق الى التطهير والى استعادة صلته بالسماء.

إن الصلاة التي صلاّها داود إثر سقطته لتصور لنا الحزن الحقيقي على الخطية. فقد كانت توبته خالصة وعميقة، إذ لم تبد منه أية محاولة لتلطيف جرمه أو لاستصغار ذنبه. ولم تكن

الرغبة في النجاة من الدينونة التي تتوعده هي التي أوحت اليه بالصلاة التي رفعها. ولكن داود كان قد أدرك فداحة تعديه، وتبين له ما في نفسه من دنس ونجاسة، فأبغض الخطية وكرهها، حتى أنه، حين صلى، لم يلتمس فقط الحصول على الغفران بل طلب أيضا طهارة القلب. فقد كان مشتاقا الى بهجة القداسة، تواقا الى استعادة صلته بالله، كما عبر عن ذلك بقوله: "طوبى للذي غفر إثمه، وسُترت خطيته. طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطية، ولا في روحه غش" مزمور ٣٢: ١و٢.

"ارحمني ياالله حسب رحمتك، حسب كثرة رأفتك امح معاصي. اغسلني كثيرا من إثمي ومن خطيتي طهرني. لأني عارف بمعاصيّ وخطيتي أمامي دائما ... طهرني بالزوفا فأطهر. اغسلني فأبيض أكثر من الثلج ... قلبا نقيا اخلق فيّ ياالله وروحا مستقيما جدد في داخلي. لا تطرحني من قدام وجهك وروحك القدوس لاتنزعه مني. رُد لي بهجة خلاصك وبروح منتدبة اعضدني" مزمور ٥١: ١-٣ و٧و١٠-١٢.

"نجني من الدماء ياالله إله خلاصي، فيسبح لساني برك" مزمور ٥١: ١٤.

فمثل هذه التوبة ليست في مقدورنا. إنها فوق طاقتنا، وإنما نؤتاها من المسيح الذي إذ "صعد الى العلاء أعطى الناس عطايا" أفسس ٤: ٨ .

يخطئ كثيرون فهم هذه الحقيقة فيفشلون في الحصول على المعونة التي يريدها لهم المسيح، إذ يظنون أنه ليس في إمكانهم أن يأتوا اليه إلا إذا تابوا أولا، وأن التوبة هي التي تعد لهم السبيل للحصول على الغفران. نعم، إن التوبة تسبق الغفران، لأنه لا يشعر بحاجته الى مُخلّص إلا كل ذي قلب منكسر وروح منسحقة. ولكن هل معنى ذلك أنه يجب على الخاطئ ألا يأتي الى المسيح حتى يتوب أولا؟ وهل نجعل من التوبة عقبة تحول دون وصول الخاطئ الى مخلصه؟

إن الكتاب المقدس لا يعلم أن الخاطئ يجب أن يتوب قبل أن يستجيب لتلك الدعوة التي يناشدنا بها المسيح قائلا: "تعالوا إليّ ياجميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" متى ١١: ٢٨. إن القوة التي تقودنا الى التوبة الحقيقية إنما هي قوة من المسيح، كما أوضح ذلك الرسول بطرس للاسرائيليين في قوله: "هذا رفعه الله بيمينه رئيسا ومخلصا ليعطي اسرائيل التوبة وغفران الخطايا" أعمال٥: ٣١. فكما أننا بدون الروح القدس، الذي يُحيي الضمير، لانستطيع التوبة، كذلك أيضا لايُمكننا الحصول على الغفران بدون المسيح.

إن المسيح هو مصدر كل باعث حق، وهو وحده القادر أن يغرس في قلوبنا عداوة للخطية، فكل رغبة تتولد فينا نحو الحق والطهارة، وكل اقتناع بشعورنا بالذنب، إنما هو دليل على أن روحه يعمل فينا.

لقد قال المسيح: "وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب اليّ الجميع" يوحنا ١٢: ٣٢. فيجبَ أن يُعلَن المسيح للخاطئ مخلصا يموت عن خطايا العالم لأننا، إذ نراه، حمل الله، مرفوعا على صليب جلجثة، نأخذ ندرك شيئا من سر الفداء، فيقتادنا لطف الله الى التوبة. فالمسيح بموته عن الخطاة أماط اللثام عن حب يفوق الوصف والإدراك، وكلما تأمل الخاطئ في هذا الحب لان قلبه، وذابت روحه وانسحقت نفسه فيه.

ويحدث أن الناس أحيانا يستهجنون شر أعمالهم، فيقلعون عن بعض عاداتهم السيئة قبل أن يدركوا أنهم إنما ينجذبون الى المسيح. ولكن الحقيقة هي أن كل مجهود إصلاحي يقومون به عن رغبة خالصة لعمل ماهو حق وصواب إنما هو قوة المسيح التي تجتذبهم إليه، إذ يستحث قلوبهم، من حيث لا يشعرون، فتحيا ضمائرهم، وتتغير حياتهم. واذ يستميلهم المسيح ليلتفتوا الى الصليب ويروه معلقا هناك مطعونا بخطاياهم، تتمكن الوصية من ضمائرهم، فيتجلى لهم شر حياتهم، وتتكشف لهم الخطية المتأصلة في قلوبهم. وإذ يُدركون شيئا من بر المسيح وكماله يصيحون قائلين: "ماهي الخطية حتى يستلزم فداء فرائسها كل هذه التضحية؟ وهل يتطلب الأمر كل هذه المحبة وكل هذا الاتضاع وكل هذه الآلام لكي لا نهلك بالخطية بل تكون لنا الحياة الأبدية؟"

وقد يقاوم الخاطئ هذه المحبة، وقد يرفض أن ينقاد الى يسوع. ولكنه إذا لم يقاوم فإنه لابد من أن ينجذب إليه، إذ إن معرفة

تدبير الخلاص تقوده الى الصليب فيأتي اليه نادما على خطاياه التي سببت كل هذه الآلام لابن الله الحبيب.

إن القوة الإلهية التي تعمل في إحياء الطبيعة هي عينها التي تتحدث الى قلوب الناس وتخلق فيهم شوقا وهياما الى مايفتقرون اليه وما لا يستطيع العالم أن يمدهم به. وروح الله هو الذي يتوسل اليهم أن يلتمسوا فقط الأشياء التي تنيلهم السلام والراحة، أي نعمة المسيح وبهجة القداسة. فبتأثيرات مرئية، وغير مرئية يسعى مخلصنا دائما الى استمالة عقول الناس من ملذات الخطية التي لا تُشبع النفس الى البركات الثمينة التي ينالونها فيه. فإلى كل من يلتمس عبثا أن يرتوي من آبار العالم المشققة، يوجه الله دعوته قائلا: "من يعطش فليأت. ومن يُرد فليأخذ ماء حياة مجانا" رؤيا ٢٢: ١٧.

فأنتم يا مَن تتوق قلوبكم الى ماهو أفضل وأسمى مما يعطيكم إياه العالم، اعلموا أن شوقكم هذا هو صوت الله لضمائركم. أطلبوا اليه أن يمنحكم التوبة، ويعلن لكم المسيح في محبته الفائقة الوصف، وطهارته الكاملة. ففي حياته قد تمثلت المبادئ التي تتلخص فيها الشريعة الإلهية، أعني المحبة لله والمحبة للإنسان. فالمحبة والرحمة كانتا جوهر حياة يسوع، حتى اننا إذ نراه ويُشرق نوره علينا نتيقن من نجاسة قلوبنا.

قد يكون أننا تملقنا أنفسنا، كما فعل نيقوديموس، فنظن أن حياتنا مستقيمة، وأن أخلاقنا قويمة فلا نحتاج الى أن نتذلل أمام الله تذلل أحد عامة الخطاة. ولكن متى أشرق في قلوبنا نور

المسيح ظهر لنا مدى نجاستنا وإثرتنا وعداوتنا لله. وعندئذ نعرف أن كل أعمالنا ملوثة بل ان أعمال برنا كثوب عدة، وأن دم المسيح وحده كفيل بتطهيرنا من نجاسة الخطية وبتجديد قلوبنا لكي نكون مشابهين لصورته.

فإن النفس إذ يتخللها شعاع يسير من مجد الله، وقبس ضئيل من طهارة المسيح، يتضح لها في ألم ما بها من لوثة ودنس، وتتكشف لها نقائص الصفات البشرية واعوجاجها، وتتبين ما هي عليه من فساد في الميول وجحود في القلب ونجاسة الشفاه. وهكذا يُعرض أمام عيني الخاطئ ماقد قام به من أعمال الخيانة، بنقضه ناموس الله، وتعطيل أحكام الشريعة، مما يجعله في حالة ألم وانسحاق تحت تأثير روح الله الفاحص القلوب. وإذ تتجلى صفات المسيح الطاهرة النقية لمثل هذا الخاطئ فإنه يمقت نفسه ويكرهها.

إن دانيال النبي حين رأى الرسول السماوي، وشهد ما حفه من المجد والبهاء، بدأ يتملكه شعور قوي واحساس جارف بنقصه وضعفه. وقد وصف هذا المنظر العجيب فقال: "ولم تبق فيّ قوة، ونضارتي تحولت فيَّ الى فساد، ولم أضبط قوة" دانيال ١٠: ٨. إن النفس التي يمسها الروح على هذا النحو لا بد من أنها تكره الأنانية، وتعاف محبة الذات، وتنشد، بواسطة بر المسيح، حياة الطهارة التي تنسجم وشريعة الله، وتتفق مع صفات المسيح وسجاياه.

ويصف الرسول بولس أعماله الظاهرية وحماسه لتطبيقها مقارنة بالناموس، بهذه الكلمات "من جهة الحماسة مُضْطَهِدُ للكنيسة. ومن جهة البر المطلوب في الشريعة، كنت بلا لوم" فيلبي ٣: ٦ (الترجمة التفسيرية). ولكنه عندما تبين طبيعة الناموس الروحية، رأى نفسه خاطئا، فهو إذ طابق حرفية الناموس على حياته كما يطبقها الناس على حياتهم الخارجية، رأى نفسه بلا لوم. ولكنه حينما تأمل في عمق الشريعة المقدسة ورأى نفسه كما رآه الله، انحنى خجلا واتضاعا واعترف بإثمه وذنبه قائلا: "أما أنا فكنت بدون الناموس عائشا قبلا، ولكن لما جاءت الوصية عاشت الخطية فمت أنا" رومية ٧: ٩. وهكذا عندما عرف روحانية الناموس ظهرت له شناعة الخطية وبشاعتها، وزايله كل ما كان في نفسه من زهو وافتخار.

يرى الله تعالى الذنوب تتفاوت في جسامتها، فهناك درجات من الإثم في تقديره كما في تقدير البشر أيضا. ولكن مهما كان هذا الخطأ أم ذاك يبدو ثانويا في أعين البشر فلا توجد خطية ثانوية في نظر الله. فحكم الإنسان ناقص وجزئي ولكن الله يقدر الأشياء كما هي على حقيقتها. فالناس يحتقرون السكير مثلا وينذرونه بسوء المغبة والمصير، في حين أنهم يتغاضون عن زجر أهل الكبرياء والأنانية والطمع. ولكن هذه الخطايا هي التي يمقتها الله بنوع خاص، لأنها تنافي طبيعته السمحة ولا تتماشى مع المحبة الخالصة التي تشكل محيط العوالم غير الساقطة. قد يشعر مرتكب إحدى الخطايا الجسيمة بالخزي والفقر، ويحس بافتقاره الى البر واحتياجه الى نعمة المسيح،

ولكن المتكبر لا يشعر بحاجة ما، فتحـول كبرياؤه دونـه ودون المسيح وتحرمه مـن البركـات الغزيـرة التـي جـاء يسـوع لكـي يمنحه إياها.

فإن ذلك العشار المسكين الذي صلى قائلا: "اللهـم ارحمنـي أنـا الخاطئ" لوقا ١٨: ١٣، اعتبر نفسه شريراً أثيمـا. وهكـذا كـان يراه غيره أيضا، ولكنه شعر بحاجته، فجـاء بذنبـه وعـاره الـى اللـه، ملتمسـا رحمتـه تعـالى، وفتـح قلبــه لتـأثيرات روح اللـه القـدوس كيمـا يجـدده ويغـيره، وسـلم نفسـه للنعمــة القـادرة أن تخلصـه وتحـرره مـن سـلطة الخطيـة. وأمـا الفريســي فكـانت صـلاته مملوءة بروح الزهو والبر الذاتي، مما دل على أن قلبـه كان مغلقا دون تأثير الروح القدس. فإنه بسبب ابتعاده عن اللـه لم يستطع أن يشعر بنجاسته مقارنة بكمال القداسة الإلهيـة، وإذ لم يشعر بحاجته مضى دون أن ينال شيئا.

إذا تبينت ما أنت عليه من إثم وخطية، فلا تنتظر ريثما تصلـح ذاتك، وكم من النــاس يظنـون أنهـم ليسـوا أهـلا لأن يـأتوا الـى المسيح. ألعلك تحاول أن تصلح نفسك باجتهادك؟ و "هـل يغـير الكوشي جلده أو النمر رقطه. فأنتم أيضـا تقـدرون أن تصنعـوا خيرا أيها المتعلمون الشر" إرميا ١٣: ٢٣. إن معونتنا هي مـن الله فقط، فيجب ألا نتطلع الى فرص أفضل، ويجـب ألا ننتظـر حتى نصير أحسن تطبعا وتخلقا، أو أشـد اقتناعـا وتوثقـا، فإننـا مـن أنفسـنا لا نسـتطيع أن نفعـل شيئا، بـل يجـب أن نـأتي الـى المسيح كما نحن.

فلا يخدعن أحد نفسه ويحسب أن اللــه مـن فـرط محبتـه وكـرم رحمته سيخلص أخيرا حتى رافضي نعمته. إن الخطية لمرض عُضال، لا يدرك استحالة البرء منه إلا من ينظر إليه فـي نـور الصليب. عندمـا يظـن النـاس أن اللـه أرحــم مــن أن يرفــض الخاطئ، فما عليهم إلا أن ينظروا الـى صليب جلجثـة. فنظـرا إلى أنه لم يوجد أي طريـق آخر بهـا ينـال الإنسـان الخـلاص، ولأن بدون هـذه التضحيـة كـان مـن المستحيل علــى الجنــس البشري أن يهرب من قـوة نجاسـة الخطيـة، ويعـاد الـى شـركة القديسين، كما كان مــن المستحيل عليـه أن يُصبـح شـريكا فـي الحياة الروحية – بسبب هذه جميعها أخذ المسيح جـرم الخطيـة على نفسه ومات عوضا عن الخاطئ. فتشـهد محبـة ابـن اللـه وتخبر تضحيتــه العظمـى بفداحـة الخطيـة، وتعلنـان أن لا أمـل بالنجـاة منهـا ومـن سلطانها، ولا رجـاء بـالحصول علـى حيـاة أسمى إلا بخضوع النفس للمخلص يسوع خضوعا كاملا.

ويحاول أحيانا الذين يصرون على خطاياهم، أن يبرروا أنفسهم بقولهم: "نحن مثل أولئك القـوم الذيـن يدعـون مسـيحيين. فـانهم ليسوا بأفضل منا تضحية ونكرانـا لذواتهـم، وليسـوا بـأكثر منـا حذرا وتعقلا، بل هم مثلنا يحبون اللهو والانغماس في الخطية." وهكـذا يتعللـون بأخطـاء الآخريـن، ليـبرروا إهمـالهم للواجـب. ولكن خطايا الآخرين ونقائصهم لايمكن أن تبرر إنسانا لأن الله لم يعطنا مثالا بشريا ناقصــا، وإنما أعطانـا ابنـه القـدوس لكـي نتمثـل بـه. إن اولئك الذيـن ينعـون علـى المســيحيين سـلوكهم الخاطئ، هم جديرون بأن يظهـروا فـي حيـاتهم سـلوكا أفضـل، ومثلا أسمى وأنبـل، لأنـه إذا كـانت لديهـم فكـرة سـامية كهـذه،

بشأن ما يجب أن تكون عليه حياة المسيحي، أفلا تكون خطيتهم أكبر وأعظم؟ بلى، لأنهم عرفوا الحق ولم يتبعوه.

وحذار من أن تؤجل أو تسوف الإقلاع عن خطاياك، بل عليك أن تبادر الى طلب تطهير قلبك بواسطة يسوع. لقد أخطأ هذه الحقيقة كثيرون، فحلت بهم الخسارة الأبدية، ولست أطيل الكلام في هذا المقام عن قصر الحياة وعدم يقينيتها، فللتأجيل خطر أشد وأدهى مما نتصور، لا يفطن إليه الناس كثيرا، وهو أننا بركوننا الى التأجيل، نرفض توسلات روح الله القدوس، ونؤثر أن نبقى في الخطية على أن نسلم أنفسنا لله. فمن هنا يتأتى الخطر، ذلك أن الخطية، مهما صغر تقديرنا لها يمكن أن ننغمس فيها على حساب خسارتنا الأبدية، فنحن إن لم نقهرها، قهرتنا وأفضت بنا الى الهلاك.

كان كل من آدم وحواء يقنع نفسه بأن أمرا يسيرا كالأكل من الشجرة المنهى عنها لا يمكن أن تترتب عليه نتائج مروعة وعواقب وخيمة، كالتي حذرهم منها الله، ولكن هذا الشيء اليسير إنما كان اعتداء على ناموس الله، ذلك الناموس الثابت المقدس. وقد أدى هذا الاعتداء الى فصل الإنسان عن الله، وتدفق عوامل الموت والشقاء الى هذا العالم بكيفية تفوق كل وصف. وعلى مدى الأجيال، سُمعت باستمرار صيحات الحزن والعويل تتصاعد من عالمنا، وصارت الخليقة كلها تئن وتتمخض نتيجة لتمرد الإنسان وعصيانه. ولقد شعرت السماء نفسها بنتائج عصيان الإنسان، وشقّه عصا الطاعة على الله تعالى. إن جلجثة لتذكرنا دائما بتلك التضحية العجيبة التي

اقتضاها التكفير عن الاعتداء على ناموس الله. فيجب ألا ننظر الى الخطية كأنها أمر تافه وهين. فإن كل ما نأتيه من أعمال التعدي، وكل ما نبديه من إهمال أو رفض لنعمة المسيح، لابد من أن يكون له رد فعل في نفوسنا، إذ تتحجر قلوبنا، وتتحط مداركنا، ويتخدر استيعابنا، فلا نصبح فقط أقل ميلا لتلبية دعوة المسيح، بل نصير أيضا أقل مقدرة على الخضوع لروح الله القدوس، والاستجابة لتوسلاته الرقيقة.

غير أنه يوجد أناس يحاولون تهدئة ضمائرهم المضطربة بظنهم أنهم قادرون على أن يغيروا مسلكهم الشرير متى شاؤوا، وأنه في استطاعتهم أن يغيروا مجرى حياتهم حتى بعد استخفافهم بنداءات الرحمة، وإصرارهم على مقاومة روح الله القدوس، وحتى بعد انحيازهم الى جانب الشيطان. ولكن هذا كله لا يمكن أن يتم بمثل هذه السهولة، إذ تكون أخلاقهم قد تكيفت تماما، على مر الزمن، بما حصلوا عليه من الاختبار والتدريب، وتشكلت بممارسة العادات والتجاريب، حتى ليتعذر على الكثيرين منهم أن يرغبوا في قبول سمة المسيح.

فإن أية خصلة من الخصال الخاطئة، أو أية رغبة من الرغبات الآثمة، إذا تركت وشأنها، كافية لأن تضعف تأثير الإنجيل، وتبطل مفعوله. وإن كل تساهل نبديه نحو الإثم من شأنه أن يزيد النفس إعراضا عن الله وصدودا عن الحق. فالإنسان الذي تبدو عليه مظاهر الجحود والكفر والتبلد وعدم الاكتراث للحق الالهي، إنما هو يحصد ما قد زرع. وليس بين دفتي الكتاب المقدس إنذارا أكثر رهبة ضد الاستخفاف بالشر من

قول الحكيم بأن: "الشرير تأخذه آثامه، وبحبال خطيته يُمسك" أمثال ٥: ٢٢.

إن المسيح على أتم استعداد لتحريرنا من الخطية، ولكنه لا يفرض علينا ذلك جبرا وقسرا، فإذا كانت إرادتنا - بسبب إصرارنا على الخطية وتمادينا فيها - قد أصبحت تميل بكليتها الى فعل الشر، وإذا كنا لا نرغب في التحرر وفي قبول نعمته، فماذا عساه أن يفعل بنا بعد ذلك؟ فنحن إنما نهلك أنفسنا بإصرارنا على رفض محبته، "هوذا الآن وقت مقبول، هوذا الآن يوم خلاص" "إن سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم" ٢كورنثوس ٦: ٢، عبرانيين ٣: ٧و٨.

"إن الانسان ينظر الى العينين وأما الرب فإنه ينظر الى القلب" ١صموئيل ١٦: ٧. نعم، إنه ينظر الى القلب البشري الذي تعتمل فيه شتى العواطف والأحاسيس من فرح وحزن، القلب الجائل التائه، المملوء بكل زيف ونجاسة، فيعلم بواعثه ونياته ومقاصده. فتوجه اليه أيها الخاطئ، واعرض أمامه نفسك بكل مافيها من تلوث وتلطخ، واكشف خفاياها أمام عينه التي ترى كل شيء، واصرخ مُرددا قول المرنم: "اختبرني ياالله واعرف قلبي، امتحني واعرف أفكاري. وانظر إن كان فيَّ طريق باطل واهدني طريقا أبديا" مزمور ١٣٩: ٢٣و ٢٤.

كثيرون يقبلون الدين عقليا، ويحملون صورة التقوى، في حين أن القلب غير متجدد. فلتكن طلبتك: "قلبا نقيا اخلق فيّ ياالله وروحا مستقيما جدد في داخلي" مزمور ٥١: ١٠. ولكن كن

أمينا مع نفسك، باذلا كل جد واهتمام، وتشبث وإصرار، كما لو كنت مشرفا على الهلاك. فهذا أمر يجب تسويته، ويجب أن يُحل بينك وبين الله تعالى بصفة نهائية لأن التعلق برجاء وهمي يكفي وحده لإهلاكنا.
أدرس كلمة الله بروح الصلاة، فإن فيها شريعته، وحياة المسيح، ومبادئ "القداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب" عبرانيين ١٢: ١٤، فضلا عن أنها تُقنعنا بالخطية وتُعلن لنا طريق الخلاص بوضوح وجلاء. انصت لها، باعتبارها صوت الله الذي يخاطب نفسك.

ومتى أدركت جسامة خطيتك، وتجلت لك نفسك على حقيقتها فلا تستسلم لليأس والقنوط. فإنما لأجل الخطاة قد جاء المسيح من السماء. فيا له من حب فائق العجب! إذ إننا لا نصالح الله، بل هو الذي "كان في المسيح، مصالحا العالم لنفسه" ٢كورنثوس ٥: ١٩. إن الله بحنو ومحبة هو الذي يستعطف قلوب أولاده الشاردين، ليردهم عن زيغهم وضلالهم. وليس من أب بشري يتسع صبره وحلمه لاحتمال عيوب أولاده وأخطائهم، كما يفعل الله مع الذين يحاول إنقاذهم. ومَن مثل الله في عطفه وحنوه على الخاطئ الأثيم؟ وليس من شفاه بشرية سكبت هذه التوسلات الرقيقة التي بها يناشد الله الإنسان الضال كما يفعل هو. إن كل مواعيده وتحذيراته ما هي إلا تنسمات محبته التي لا ينطق بها.

عندما يأتي الشيطان ويوسوس لك بأنك خاطئ عظيم، تطلع الى فاديك وتحدث عن استحقاقاته. وجه نظرك الى نوره فتجد

العون، ثم اعترف بخطيتك، وانتهر عدو الخير، وقل لـه "إن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة" ١ كورنثوس ١: ١٥. وإنك يمكن أن تخلص بواسطة محبته الفائقة. عندما سأل المسيح سمعان سؤالا فيما يختص بمديونيْنِ كان أحدهما مدينا بمبلغ زهيد، والآخر كان مدينا بمبلغ جسيم جدا، ولكن السيد سامح الاثنين، فأيهما يكون أكثر حبا لسيدِه؟ أجاب سمعان قائلا: "أظن الذي سامحه بالأكثر" لوقا ٧: ٤٣. فنحن كنا من أردأ الخطاة، ولكن المسيح مات لكي نوهب الغفران. إن استحقاقات ذبيحته وتضحيته لتكفي للتشفع فينا أمام الآب. والذين سامحهم الله بالأكثر سيحبونه أكثر، وسيكونون أقرب الناس الى عرشه، ليسبحوه على محبته العظمى، وتضحيته التي لا حد لها. فإننا، كلما ازددنا ادراكا لمحبة الله، تحققنا أكثر فاكثر حقيقة الخطية وطبيعتها، وعرفنا أنها خاطئة جدا. وعندما نرى عمق محبته التي أحبنا بها، وندرك شيئا من تضحيته اللامحدودة لأجلنا، تنفطر قلوبنا حزنا وتذوب أفئدتنا حنوا وتعطفا.

الاعـتراف

"من يكتم خطاياه لا ينجح ومن يقر بها ويتركها يرحم" أمثال ٢٨: ١٣. إذن فما يشترطه الله علينا، لكي يمنحنا رحمته ويهبنا عفوه وغفرانه، سهل وعادل ومعقول. فهو لا يطلب منا عمل أمر يُحزننا أو يُسبب لنا ألماً، ولا يفرض علينا تجشم الأسفار وركوب الأخطار لأداء حج أو بلوغ مزار. ولا يأمرنا بأن نقوم بأعمال تقشفية، وممارسات تعذيبية، تكفيراً عما اقترفناه من تعد وعصيان، وإنما كل مايطلبه الله منا لكي يشملنا برحمته هو الاعتراف بخطايانا والإقلاع عنها.

يقول الرسول: "اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات. وصلوا بعضكم لأجل بعض لكي تشفوا" يعقوب ٥: ١٦. فلنعترف بخطايانا لله، فهو وحده قادر على أن يهبنا الغفران، ولنعترف أيضا بعضنا لبعض بالزلات، فإذا بدرت منك إساءة نحو صديق لك أو جار، فمن حقه عليك أن تقر له بخطئك كما أنه من الواجب عليه هو أيضا أن يرضى ويصفح. ثم بعد ذلك عليك أن تلتمس عفو الله وغفرانه، لأن ذلك الأخ الذي اجترأت عليه وجرحته إنما هو ملك الله، فإن أضررت به، فأنت تخطئ ضد خالقه وفاديه. ومتى اعترفت لله بخطيتك ولأخيك بذنبك، فإن القضية تصبح أمام الوسيط الحقيقي الوحيد ورئيس الكهنة الأعظم الذي هو "مُجرب في كل شيء مثلنا؛ بلا خطية"،

ومستعد "أن يرثي لضعفاتنا"، عبرانيين ٤: ١٥، وقادر أن يطهرنا من كل وصمة إثم.

إذن فأولئك الذين لم يذللوا نفوسهم أمام الله، معترفين بذنبهم لم يقوموا بعد بأول شرط من شروط قبولهم، لأننا إن كنا لم نتب الى الله توبة لا رجعة عنها ولا انتكاص، وإن كنا لم نعترف له بخطايانا بتذلل وانكسار، ولم ننظر الى الإثم نظرة مقت واستنكار، فلا نكون حتى الآن قد طلبنا حقا الصفح والغفران. وإن كنا لم نطلب، فنحن لم نجد بعد سلام الله. إنه لا يوجد سبب لعدم نيلنا غفرانا عن خطايانا الماضية سوى أننا غير راغبين في التذلل أمام الله والإذعان لشروط كلمة الحق. فإن الله تعالى قد أعطانا تعليمات صريحة في هذا الشأن تبين لنا أن الاعتراف بالخطايا، سواء أكان بصفة فردية أم علنية، يجب أن يصدر عن القلب، ويجب أن يعترف به الفم ويردده اللسان، لأن الاعتراف ليس مجرد لغو أو كلام يُلقى جزافا، وليس هو مجرد تصريح يُنتزع من صاحبه انتزاعاً، دون أن يدرك جسامة خطيته، ويشعر بشدة نفوره منها واستنكاره لها. وإنما الاعتراف الصحيح الذي يجد سبيلا الى رحمة الله وعفوه، هو الذي يصدر من أعماق النفس ويصعد من صميم القلب. كما يقول المرنم: "قريب هو الرب من المنكسري القلوب ويخلص المنسحقي الروح" مزمور ٣٤: ١٨.

فالاعتراف الحقيقي هو الذي يتسم بالتحديد، ويتناول الإقرار بالخطايا على وجه التخصيص. هذه الخطايا قد تكون من النوع الذي يجب عرضه أمام الله فقط، وقد تكون غلطات يجب أن

نعترف بها أمام من ألحقنا بهم ضرراً وسوءاً وقد تكون أيضا ذات صفة علنية، فيجب أن نعترف بها جهاراً. ولكن في كل الحالات يجب أن يكون الاعتراف محددا ومُنصبًّا على الاعتراف بالخطية التي ارتكبناها.

ففي زمن صموئيل ضل الاسرائيليون عن الله، وكانوا يعانون من نتائج خطيتهم لأنهم فقدوا إيمانهم وثقتهم به، وتيقنهم من قدرته وحكمته لإدارة الحكم، والذود عن قضيته وتزكيتها. لقد تحولت قلوبهم عن الحاكم الأعظم الذي بيده مقاليد الكون بأسره رغبة منهم في أن يكون لهم مَلِك أسوة بمن حولهم من الأمم والشعوب. وقد تم لهم ما أرادوا ولكنهم باؤوا بالفشل والخيبة، ولم يتذوقوا طعم السلام والاستقرار حتى أتوا الى الله واعترفوا بما اقترفوه من جحود وإنكار، إذ قالوا لصموئيل: "صّل عن عبيدك الى الرب الهك حتى لا نموت لأننا قد أضفنا الى جميع خطايانا شراً بطلبنا لأنفسنا ملكا" ١صموئيل ١٢: ١٩. فالاسرائيليون إذ اقتنعوا بأن نكرانهم للجميل هو الذي أقصاهم عن الله، وأدى الى فصم عرى الشركة بينه وبينهم، لم يروا مندوحة عن تحديد اعترافهم بذكر هذه الخطية بالذات، إذ قالوا: "لأننا قد أضفنا الى جميع خطايانا شرا بطلبنا لأنفسنا ملكا".

غير أن الاعتراف لا يكون مقبولا عند الله، إلا إذا كان مقترنا بالتوبة والإصلاح. فيجب أن تتناول الحياة تغييرات ظاهرة، ويجب العمل على نبذ كل شيء يسيء الى الله تعالى. ولن يتأتى كل هذا إلا نتيجة لحزن حقيقي وتوبة خالصة. وأما

الإصلاح الذي يتعين علينا أن نقوم به من جانبنا فقد بيّنه النبي إشعياء جليا وواضحا في قوله: "اغتسلوا تنقوا، اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني، كفوا عن فعل الشر، تعلموا فعل الخير، اطلبوا الحق، انصفوا المظلوم، اقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة" إشعياء ١: ١٦و١٧. كذلك نوّه به حزقيال في قوله: "إن رد الشرير الرهن وعوّض عن المغتصب، وسلك في فرائض الحياة بلا عمل إثم فإنه حياة يحيا. لا يموت" حزقيال ٣٣: ١٥. وأيضا فصّله الرسول بولس في قوله: "فإنه هوذا حزنكم هذا عينه بحسب مشيئة الله كم أنشأ فيكم من الاجتهاد بل من الاحتجاج بل من الغيظ بل من الخوف بل من الشوق بل من الغيرة بل من الانتقام. في كل شيء أظهرتم أنفسكم أنكم أبرياء في هذا الأمر" ٢ كورنثوس ٧: ١١.

فالخطية متى أماتت الشعور الأدبي، تجعل فاعل الإثم لا يرى ما في صفاته من نقائص وعيوب، ولا يتحقق فداحة الشر الذي ارتكبه. فما لم يخضع لقوة الروح القدس المقنعة، يظل غير مدرك لخطيته إدراكا كاملا، وتكون اعترافاته خالية من روح الجد والاخلاص إذ يحاول عند كل اعتراف أن يلتمس لنفسه الأعذار، ناسبا أخطاءه الى الظروف التي أحاطت به، والتي لولاها لما ارتكب مثل هذا الذنب الذي يُلام عليه.

فإن آدم وحواء بعد أن أكلا من الشجرة المنهى عنها، شعرا بالخزي والعار وأحسا بالرهبة والخوف. وكان جُل همهما في مبدأ الأمر منصرفا الى تلمس وسيلة الاعتذار عن خطيتهما، والتخلص من حكم الموت الرهيب. فلما بدأ الله يسألهما عن

الخطية التي اقترفاها، أخذ آدم ينحي باللائمة على الله تعالى وعلى المرأة، إذ قال: "المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت" تكوين ٣: ١٢. وكذلك المرأة بدورها أخذت تنحي باللائمة على الحية، إذ قالت: "الحية غرتني فأكلت" تكوين ٣: ١٣، كأنها تعترض على الله تعالى قائلة لماذا خلقت الحية ولماذا تركتها تتسلل الى جنة عدن؟ تلك كانت الأسئلة المتضمنة في عذرها عن خطيتها. وهكذا ألقت التبعة على الله سبحانه، وجعلته مسؤولا عن زلتهما وسقطتهما. ولا عجب في ذلك فإن روح التنصل من المسؤولية وتبرئة أنفسنا تولدت في الأصل عند إبليس الملقب بأبي الكذاب ومنه سرت الى كل ذرية آدم وحواء. مثل هذه الاعترافات ليست بإيحاء من الروح الإلهي، وبالتالي فهي غير مقبولة البتة عند الله. أما التوبة الصحيحة فإنها تجعل الإنسان يحمل ذنبه بنفسه، ويقر به في غير خداع ونفاق، كما فعل ذلك العشار الذي لم يجرؤ أن يرفع عينيه نحو السماء، بل قرع على صدره وصرخ قائلا: "اللهم ارحمني أنا الخاطئ" لوقا ١٨: ١٣. فعاد الى بيته مبررا. وهكذا يتبرر كل من اعترف بذنبه لأن يسوع نفسه يتشفع بدمه لأجل كل نفس تائبة.

وإن الأمثلة الواردة في كلمة الله بشأن التوبة الحقيقية والاتضاع توضح لنا روح الاعتراف الصحيح الخالي من كل تعلل وتنصل، وتبين لنا الإقرار الخالص الذي لا يشوبه البر الذاتي. فبولس، مثلا، لم يحاول قط أن يبرئ نفسه مما اقترفه ضد الكنيسة، بل هو يصور خطيته كأشد ما تكون اسودادا وإظلاما دون أن يحاول استصغار ذنبه، إذ يقول: "وفعلت ذلك

أيضا في أورشليم، فحبست في سجون كثيرين من القديسين، آخذا السلطان من قبل رؤساء الكهنة. ولما كانوا يُقتلون ألقيت قرعة بذلك، وفي كل المجامع كنت أعاقبهم مرارا كثيرة واضطرهم الى التجديف وإذ أفرط حنقي عليهم كنت أطردهم الى المدن التي في الخارج" أعمال ٢٦: ١٠و١١. بل ولم يتردد أن يقول "إن المسيح يسوع جاء الى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم أنا" ١تيموثاوس ١: ١٥.

أجل، فانما بالتواضع والانكسار، والتوبة الصادقة يستطيع الخاطئ أن يقدر شيئا من محبة الله، وشيئا مما أُنفق في جلجثة. فيأتي الى الله كما يأتي الى أبيه المُحِب، معترفا بكل ذنوبه، وتائبا عن كل خطاياه، لأنه مكتوب: "إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم" ١يوحنا١: ٩.

التكريس

بهذا وعدنا الله: "تطلبونني فتجدونني إذ تطلبونني بكل قلبكم" إرميا ٢٩: ١٣. إن لم نطلب الله بكل قلوبنا لا نجده، وإن لم نذعن له إذعانا كاملا لا نتغير عن شكلنا لنكون مُشابهين صورته ومثاله، لأننا بالطبيعة أعداء الله، وقد وصفنا الروح القدس بأننا "أموات بالذنوب والخطايا" أفسس ٢: ١، وشخص حالتنا فقال: "كل الرأس مريض وكل القلب سقيم ... ليس فيه صحة" إشعياء ١: ٥و٦، فنحن مُمسكون في فخاخ إبليس مُقتنصون لإرادته، ٢تيموثاوس ٢: ٢٦. غير أن الله تعالى يريد شفاءنا ويرغب في تحريرنا، وهما أمران يستوجبان تغييرا شاملا في صفاتنا وتجديدا كاملا في طبيعتنا ولا يصيران إلا بتسليم قلوبنا لله تسليما تاما.

نعم، إن محاربة الأثَرَة فينا هي أعظم معركة دارت رحاها إطلاقا، لأن تسليم النفس لله وإخضاع المشيئة لمشيئته يستلزمان حربا عوانا وصراعا عنيفا، والنفس لا تتجدد في القداسة ما لم تخضع لربها خضوعا مطلقا.

غير أن سياسة الله ليست، كما يريد أن يصورها لنا الشيطان، مؤسسة على تحكم غاشم يتطلب منا تسليما أعمى. يناشد الله عقولنا ويهيب بضمائرنا إذ يدعونا قائلا، "هلم نتحاجج" إشعياء ١: ١٨، فهو تعالى يأبى أن نتعبد له قسرا واضطرارا، لأن

استعمال الوسائل القهرية والأساليب الجبرية لمما يُعيق تقدمنا الفكري وتحسننا الخلقي ويجعل منا آلة صماء، فما لغرض كهذا خلقنا الله، بل ليسمو الانسان الذي توج به عمل الخلق الى أقصى مراتب الرقي وأسمى غايات التقدم، جاعلا أمامنا ذروة البركة التي نبلغها بنعمته، وداعيا إيانا أن نبادر بتسليم أنفسنا له لكي يعمل فينا إرادته ويتمم فينا مشيئته. فالأمر متروك لنا لنختار فيما إذا كنا سنتجرر من عبودية الخطية، لكي نشترك في حرية مجد أولاد الله.

إن تكريس ذواتنا لله ليستلزم حتما أن نتنحى عن كل شيء من شأنه أن يفصلنا عنه، كما أوضح ذلك يسوع في حديثه مع تلاميذه، إذ قال: "فكذلك كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لي تلميذا" لوقا ١٤: ٣٣. فكل شيء يحّول القلب عن الله يجب نبذه وتركه، فالمال صنم يتعبد له كثيرون ممن يتهافتون على الثراء. ومحبة المال هي السلسلة الذهبية التي يستأسرهم الشيطان بها. وآخرون يتعبدون للشهرة والجاه العالمي، وغيرهم يتعبدون لصنم الدعة والراحة والتحلل من التبعات والفرار من المسؤوليات. فكل هذه أغلال يجب تحطيمها، لأننا لا نقدر أن نجزئ حياتنا بين الله والعالم، بل لا نكون أولادا لله حتى نكرس أنفسنا له تكريسا تاما.

ومن الناس من يدعون بأنهم يعبدون الله، بينما هم لا يعتمدون إلا على برهم الذاتي، فهم يريدون أن يحفظوا الناموس، ويمارسوا حياة الفضيلة، ويحصلوا على الخلاص، بمحض اتكالهم على جهودهم الشخصية، دون أن يكون الباعث على

ذلك كله محبة المسيح. فهم يسعون لممارسة واجبات الحياة المسيحية كفرض يطلبه الله منهم لحصولهم على السماء. فمثل هذه الديانة لا تغني فتيلا. ولكن متى حل المسيح في حياتنا، امتلأت قلوبنا بمحبته، واغتبطت نفوسنا بعشرته، فلا نلبث أن ننسى ذواتنا، ونجعله هو مركز تفكيرنا ومحور تأملاتنا، فمن ثم تكون بواعثنا كلها مدفوعة بمحبة المسيح، لأن الذين تحصرهم محبة الله لا يعودون ينظرون الى الحياة المسيحية كأنها فرض يؤدى أو واجب يقضى، لا يحاولون أن يظفروا منها بأكبر مغنم وأقل مغرم، بل تكون غايتهم القصوى هي التشبه بالمسيح، والعمل بموجب مشيئته وإرادته، مبدين من الاهتمام ما يتفق والغرض الذي ينشدونه. فإن الاعتراف بالمسيح إذا لم يكن صادرا عن حب عميق فإنه لا يعدو أن يكون مجرد شقشقة لسانية، وممارسات شكلية، وحياة كلها عبودية.

أفتشعر بأنه كثير عليك أن تضحي بكل شيء لأجل المسيح؟ إذن فسَلْ نفسك: ماذا أعطى المسيح لأجلي؟ إنه بذل كل شيء لفدائنا – حبه وحياته وآلامه. أفنضن عليه بقلوبنا، ونحن لسنا أهلا لمحبة عظمى كهذه؟ وإنما لكوننا نتمتع في كل لحظة من لحظات حياتنا بالاشتراك في بركات نعمته، صرنا لا ندرك تماما عمق الجهل والبؤس اللذين أنقذنا منهما. وهل نستطيع أن نراه مطعونا بخطايانا، ثم نزدري محبته وتضحيته؟ وهل نستطيع أن نرى تواضع رب المجد الذي لا حد له ثم نتذمر لأنه لا سبيل الى دخول الحياة الا بالصراع وإذلال النفس؟

فكم من أناس ذوي قلوب متكبرة يتساءلون قائلين: وما ضرورة التذلل والاتضاع، والحزن والتوبة؟ وهل يلزم أن نمارس كل هذه الأمور حتى يؤكد الله لنا قبولنا؟ وردا على هذا السؤال لا يسعني إلا أن أشير الى المسيح نفسه الذي كان منزها عن الخطية، فضلا عن كونه رئيس السماء، ولكنه إذ ناب عن جنسنا الأثيم صار خطية لأجلنا و "أُحصي مع أثمة، وهو حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين" إشعياء ٥٣: ١٢.

ولكن ماهو هذا "الكل" المطلوب منا أن نقدمه لله؟ إنه القلب، وما هو إلا قلب ملوث بالإثم والخطية يريد المسيح أن يطهره بدمه الزكي، ويخلصه بمحبته الفائقة! ومع ذلك فالناس يستصعبون أن يعطوا هذا "الكل" لله، فواخجلتاه وواحسرتاه! إنني أخجل من سماع هذا الكلام وأخجل من الكتابة عنه.

على أن الله تعالى لا يطلب منا أي شيء يرى من مصلحتنا أن نستبقيه لأنفسنا، لأنه في كل ما يعمله ويجريه، إنما يضع نصب عينيه خير خلائقه وصالح بنيه. فيا ليت أولئك الذين لم يختاروا المسيح بعد، يدركون أن لديه أشياء فضلى يريد أن يمنحهم إياها. وإن هذه الأشياء تفوق كثيرا ما ينشدونه هم أنفسهم. فإن الإنسان حين يفكر ضد مشيئة الله، ويعمل ضد إرادته تعالى، إنما يسئ الى نفسه ويجحف بصالحه. لأن الفرح الحقيقي لا يتأتى بالسير في الطريق المحظور، والخروج على وصية الله الذي يعرف تماما كل ما يؤول لخير خلائقه، فإن طريق الإثم والتعدي إنما ينتهي بنا الى البؤس والتردي.

وإنه لمن الخطأ أن نظن أن الله تعالى يرضى بأن يرى أولاده يتألمون، لأن السماء جميعها يهمها إسعاد الإنسان. كما أن أبانا السماوي لا يسد مسالك السعادة أمام أحد من خلائقه، وإنما هو يهيب بنا أن نقلع عن الانغماس في اللذات التي تفضي بنا الى اليأس والشقاء، فضلا عن أنها توصد أمامنا باب السعادة، وتحول دون دخولنا السماء. كذلك يسوع الفادي على استعداد لأن يقبلنا كما نحن، على ما نحن عليه من ضعف ونقص وعوز، وهو لن يقتصر فقط على تطهيرنا من الخطية ومنحنا الفداء بدمه، بل هو أيضا على استعداد لأن يُشبع رغائب كل الذين يلبون دعوته ويحملون نيره، إذ هو يريد أن يمنح الراحة والسلام لكل من يأتي إليه ملتمسا خبز الحياة. وإنما هو يطلب منا أن نقوم بتلك الواجبات التي تقود خطواتنا الى أوج السعادة والهناء، مما يستحيل بلوغه على كل من يخالف وصية الله. إن حياة البهجة الحقيقية لن تتهيأ الا إذا تصور المسيح فينا "رجاء المجد".

ولَرُبَّ سائل: كيف أسلم نفسي لله؟ فأنت إذاً راغب في تسليم نفسك له، ولكنك تشعر بعجزك الروحي وقصورك الأدبي، إذ ترى نفسك مستعبدا للشكوك المقلقة، ومستأسرا للعادات الشريرة، متشبثا بحبال خطاياك، حتى صارت عهودك محلولة، وعزيمتك مفلولة، فأنت لا تستطيع السيطرة على أفكارك ولا التحكم في نوازعك ومشاعرك. وتيقنك من حنوثك لوعودك أضعفت ثقتك في إخلاصك وجعلتك تتشكك في إمكانية قبولك لدى الله، ومع ذلك، فيجب ألا تقنط أو تيأس، لأن كل ما يلزمك في مثل هذا الموقف، هو أن تفهم قوة الإرادة وتعرفها على الوجه الصحيح. فهي عبارة عن القوة الضابطة التي

أوجدها الله في طبيعة الإنسان. وهي القوة التي بها نقرر وبها نختار. فيتوقف مصيرك على عمل الإرادة، وعلى حسن توجيهها واستخدامها. فالقدرة على الاختيار هي عطية الله للبشر وعليهم استخدامها. فإن كنت عاجزا عن تجديد قلبك وتغيير عواطفك، فما أنت بعاجز عن أن تختار، وما أنت بقاصر عن أن تسلم لله نفسك وإرادتك، ومتى سلمت له ذاتك فإنه لا يلبث أن يعمل في قلبك لأن تريد وأن تعمل من أجل المسرة. وعندئذ تصبح طبيعتك تحت سيطرة الروح. ويصبح المسيح محور تفكيرك، وقبلة عواطفك وشعورك.

ولئن تكن الرغبة في الحصول على الصلاح والقداسة هي عين الصواب، إلا أنه يجب أن لا نقف في جهادنا عند حد الرغبة فقط، إذ إن كثيرين سيهلكون لأن كل همهم كان مقتصرا على التعلل بالرغبة والأمل، دون أن يسلموا أنفسهم لله، ويختاروا المسيح نصيبا لهم.

ولكنك إذا أحسنت استخدام إرادتك، وسلمت نفسك للمسيح، فلا بد من أن يشمل حياتك تغيير كلي، وتصبح متحالفا مع القوة التي هي فوق كل رياسة وسلطان. عندئذ يمدك الله بكل قوة علوية، ليحفظك ويثبتك. وهكذا بخضوعك الدائم لله، تستطيع أن تحيا حياة جديدة، حياة الإيمان العامل بالمحبة.

الإيمان والقبول

إذا أحيا الروح القدس ضميرك، أدركت شيئا من شر الخطية وقوتها وجُرمها وويلاتها. فعافتها نفسك، لأنك شعرت بأنها قد فصلتك عن الله واستعبدتك بسلطانها. وكلما حاولت التحرر منها، تأكدت من عجزك وتثبت من قصورك. وعرفت أن بواعثك دنسة وقلبك نجس وحياتك مليئة بالإثرة، مفعمة بالخطية. فأصبحت الآن تتوق الى الغفران وتشتاق الى التطهير والعتق، فما عساك أن تفعل لكي تصير في وفاق مع الله وتتصف بصفاته؟

إن مسيس حاجتك هي الى السلام، سلام الله الناشئ عن غفران الخطية وانسكاب المحبة في نفسك. ولا تقدر أن تشتري هذا السلام بالمال ولا تستطيع أن تناله بالعقل ولا أن تدركه بالحكمة. ومجهوداتك تُخَيِّبُ أملك في الحصول عليه. ومع ذلك، فهو في طاقة يدك، لأن الله قد وهبه لك مجانا "بلا فضة وبلا ثمن" إشعياء ٥٥: ١. كما قال أيضا "إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج. إن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف" إشعياء ١: ١٨، "وأعطيكم قلبا جديدا وأجعل روحا جديدة في داخلكم" حزقيال ٣٦: ٢٦.

وها أنت قد اعترفت بخطاياك، وتحولت عنها في قلبك. وعزمت أن تسلم نفسك لله، فاذهب إليه تعالى واطلب منه أن

يغسلك من ذنوبك ويجعل فيك قلبا جديدا. ثم صدّق أن الرب قد فعل هذا كلّه لأنه وعد بـه، فيكـون لـك. وقـد علّـم يسـوع بهـذه الحقيقة لما كان هنا على الأرض بأن العطية التي يعدنا بها الله علينا أن نؤمن أننا ننالها فتكون لنا. فوعده الأكيد هـو: "كـل مـا تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم" مرقس ١١: ٢٤. شفى يسوع المرضى عندما آمنوا بقدرته. لقد ساعدهم في ما كانوا ينظرون ليُكسبهم الثقة به في مـا لـم ينظـروا والإيمـان بقدرته على غفران الخطايا أيضا، كما صـار فـي حادثـة شـفاء المفلوج مثلا، إذ قال للجمهـور "لكـي تعلمـوا أن لابـن الإنسـان سلطانا على الأرض أن يغفر الخطايا" حينئذ قال للمفلـوج "قـم، احمل فراشك واذهب الى بيتك" متى ٩: ٦. وأيّدَ البشـير يوحنـا هذه الحقيقة وهو يدون الآيات التي صنعها يسوع إذ قـال "وأمـا هذه فقد كتبـت لتؤمنـوا أن يسـوع هـو المسـيح ابـن اللـه ولكـي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه" يوحنا ٢٠: ٣١.

من القصص التي رواها الإنجيل بكل بساطة عـن الكيفيـة التـي شفى بها يسوع المرضى، يمكننا أن نتعلم شيئا عن الإيمـان بـه لغفران الخطية. فلنرجع إذا الى المريض المضطجع عند بركـة بيت حسدا. كان ذلك المسكين ضعيفا جدا وقد بلـغ العجـز منـه حدا لم يستطع معه أن يستعمل أوصاله لمدة ثمان وثلاثين سنة، ومع ذلك أمره يسوع قائلا: "قم، احمل سـريرك وامـش" يوحنـا ٥: ٨. فلو احتج المريض قائلا: اشفني يا سيد فأطع أمرك، لما نال الشفاء. ولكنه لم يحتج بل صدّق كلمة المسيح وآمن أنه قـد شـفي. وفـي الحـال همَّ بالقيـام فقـام، وأراد أن يمشـي، فمشـى. أطاع كلمة المسيح فأعطاه الله القدرة وبرىء البرء التام.

وأنت بالمثل خاطئ، ولا تستطيع أن تكفّر عن تعدياتك السالفة، ولا تقدر أن تغيِّر قلبك أو أن تقدس نفسك. ولكن قد وعدك الله بأن يصنع هذا كلّه لأجلك في المسيح. أنت تؤمن بهذا وتعترف بخطاياك وتسلم ذاتك لله، وتريد أن تخدمه تعالى. فحالما تؤمن بالوعد وتصدق أن خطاياك قد غفرت وقلبك تطهر، يحقق الله لك البرء، تماما كما أعطى المسيح مريض بيت حسدا القوة على المشي عندما آمن أنه قد شفي. فالأمر يصبح واقعا. وأنت قد شُفيت، إن كنت قد آمنت.

فلا تنتظر حتى تشعر بأنك قد شُفيت، بل قل أنا آمنت، وقد صار الشفاء، لا لأني شعرت به، بل لأن الله قد وعد به.

قال يسوع، "كل ما تطلبونه حينما تصلون، فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم" مرقس ١١: ٢٤. على أن الشرط الوحيد لإتمام هذا الوعد هو أن تكون الطلبة بحسب مشيئة الله. ولكن الله يزيد أن يطهرك من الخطية وأن يتبناك أيضا ابنا له، وأن يقدرك على حياة القداسة. فاطلب كل هذه البركات مؤمنا بأن تنالها، بل اشكر الله أنك قد نلتها. إنه من حقك أن تسلم نفسك للمسيح ليطهرك، فتقف إذ ذاك أمام الشريعة التي تعديت مناهيها غير خجل وغير مدان. لأن "لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح" رومية ٨: ١.

ومن الآن فصاعدا أنت لست لذاتك، لأنك اشتُريت بثمن "لا بأشياء تفنى، بفضة أو ذهب... بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس، دم المسيح" ١بطرس ١٨و١٩. بإيمانك بالله قد ولّدَ الروح القدس حياة جديدة في قلبك، فصرت طفلا في أسرة الله الذي يحبك كما يحب ابنه يسوع.

وإذ قد سلمت نفسك ليسوع، فلا ترتد عنه ولا تبتعد، بل قل في نفسك كل يوم، "إني للمسيح، وقد سلمته ذاتي". واطلب إليه أن يمنحك من روحه ويحفظك بنعمته. فكما صرت ابنا له، بتسليمه نفسك وإيمانك به، فكذلك تحيا به، حسب قول الرسول "كما قبلتم المسيح يسوع الرب اسلكوا فيه" كولوسي ٢: ٦.

يشعر البعض بأنهم، قبل أن يصير لهم الحق في طلب البركة يجب أن يجتازوا امتحانا يُثبتون فيه أنهم قد أصلحوا حياتهم. بيد أن الحقيقة هي أن لهم الحق في أن يطلبوا البركة الآن، بل هم، إن لم ينالوا نعمة المسيح، وإن لم يأخذوا من روحه ليعين ضعفاتهم، لا يستطيعون أن يقاوموا الشر. زد على ذلك أنه يجب أن نأتي الى المسيح كما نحن خاطئين عاجزين محتاجين. فلنأت بضعفاتنا وجهالاتنا ونجاساتنا، ولنرتمِ عندَ قدميه نادمين، لأنه من دواعي فخر المسيح ومجده، أن يحتضننا بذارعي محبته، ويضمد جروحنا وينقي قلوبنا.

إن الكثيرين لا ينالون الخلاص لأنهم لا يصدقون أن عفو المسيح يشملهم هم شخصيا، ولا يثقون بأن الله يقصدهم بالذات في مواعيده. بيد أنه من حق كل فرد قد آمن بعفو المسيح أن

يعرف ويتأكد أن جميع خطاياه قد غُفرت مجانا. فإن كنت تشك في أن الله يعنيك بمواعيده، انزع عن نفسك هذا الشك وآمن بأن مواعيد الله إنما هي لكل مذنب تائب بالحق، بل انه تعالى قد أعدَّ في المسيح قوة ونعمة يقدمهما لكل مؤمن محتاج بواسطة الملائكة الطائعين أمره. وليس من مذنب قد بلغت خطيته وإثميته حدا لا يجد معه القوة والطهارة والبر في المسيح الذي مات لأجله. فإن الفادي لفي انتظار الخاطئ الأثيم لكي ينزع هو عنه الثياب القذرة الملطخة بالخطية ويلبسه ثوب بره الأبيض. فقد أمر بحياته لا بموته.

إن الله لا يعاملنا كما يعامل الناس بعضهم بعضا، إذ إن أفكاره أفكار رحمة ومحبة وشفقة كما صرح بذلك قائلا: "ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره، وليتب الى الرب فيرحمه، والى إلهنا لأنه يكثر الغفران". و "قد محوت كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك" إشعياء ٥٥: ٧؛ ٤٤: ٢٢.

"لأني لا أُسَرُّ بموت مَن يموت يقول السيد الرب، فارجعوا واحيوا" حزقيال ١٨: ٣٢. ولكن الشيطان واقف لنا بالمرصاد ليسلب نفوسنا ثقتها بهذه التأكيدات الإلهية، ويطفئ فينا كل بارقة أمل، ويحجز عنا كل شعاع من النور. فلا تسمح له بأن يفوز بشيء مما يضمره لك. ولا تعطه أذنا صاغية، بل قل له "إن يسوع قد مات عني لكي أحيا أنا، فهو إذن يحبني ولا يشاء أن أموت، ولي أب رحيم في السماء، ولئن كنت قد أسأت الى محبته وبذرت بإسراف بركاته"، فإني "أقوم وأذهب الى أبي وأقول له يا أبي أخطأت إلى السماء وقدامك ولست مستحقا بعد

أن أُدعى لك ابنا، اجعلني كأحد أجراك"، لوقا ١٥: ١٨و١٩. ويخبرنا المثل كيف تم استقبال الابن الضال: "وإذ لم يزل بعيدا رآه أبوه، فتحنن وركض ووقع على عنقه وقبله" لوقا ١٥: ٢٠.

إن مثل الابن الضال، وإن كان بالغا في اللطف والرقة ليقصر عن وصف شفقة الله الأبوية التي لا تعرف حدا. وقد قال على لسان إرميا، "محبة أبدية أحببتك من أجل ذلك أدمت لك الرحمة" إرميا ٣١: ٣. وبينما الخاطئ لا يزال بعيدا عن بيت الآب السماوي يبذر أمواله في بلاد بعيدة، يتقد قلب الآب شوقا إليه، وكل ما يتولد في قلب الخاطئ من رغبة في الرجوع الى الله إنما هو من نتيجة نداءات الروح القدس له وتوسلاته إليه ليرجع الى قلب أبيه المحب.

أبَعْدَ هذه المواعيد الكتابية الغنية التي جعلها الله بين يديك، تدع للشك مكانا في نفسك؟ وهل تتصور أن الله يُبدي صدودا وجفاء لخاطئ تتوق نفسه الى أن يترك خطاياه ويرجع إليه نادما تائبا. تبا لكل فكرة كهذه، لأنه لا شيء أضر لنفسك من مثل هذه الأوهام. فإن الآب السماوي، وإن كان يبغض الخطية، إلا أنه يحب الخاطئ. ولذلك بذل نفسه في شخص المسيح لكي يخلص كل من أراد الخلاص، ويمنحه السعادة الأبدية في ملكوت المجد. وهل من لغة تعبر عن محبته أرق وأقوى من قوله، "هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها. حتى هؤلاء ينسين، وأنا لا أنساك" إشعياء ٤٩: ١٥.

فانتصب يا من عراك الشك والخوف، فإن يسوع حي ليشفع فيك. واشكر الله الذي بذل ابنه الحبيب لأجلك، وتوسل إليه أن لا يكون موته عنك عبثا. فإن الروح يدعوك اليوم مُناشدا إياك أن تأتي بكل قلبك الى يسوع، وتطلب إليه أن يمنحك هباته وبركاته.

وإذ تقرأ المواعيد فاذكر أنها تعبر عن رحمة وشفقة لا توصفان. فإن قلب تلك المحبة العجيبة ليحنو على الخاطئ ويحوطه بكل عوامل الرأفة والحنان. ونحن قد صار "فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا" أفسس ١: ٧. ولم يبق عليك إلا أن تؤمن بأن الله هو عونك وقوتك وهو يريد أن يستعيد صورته الأدبية في الإنسان. فكلما اقتربت منه بالاعتراف والتوبة، اقترب هو أيضا منك بالرحمة والغفران.

محك التلمذة

"إذاً، إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة، الأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكل قد صار جديدا" ٢كورنثوس ٥: ١٧.

قد لا يستطيع شخص أن يعرف تماما الوقت الذي بدأ فيه أن يتجدد، وقد لا يستطيع أيضا أن يحدد المكان أو الأحوال التي لا بست عملية التجديد ولكن هذا لا يعني أنه غير متجدد. فقد قال المسيح لنيقوديموس، "الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا الى أين تذهب. هكذا كل من وُلد من الروح" يوحنا ٣: ٨. وكما أن الريح لا ترى بالعين بل تعرف بتأثيرها وقوتها، فكذلك عمل روح الله في قلب الإنسان. فهذه القوة المجددة، التي لا يمكن أن ترى بالعين البشرية، تولد في النفس حياة روحية، وتجعل من الإنسان مخلوقا جديدا على صورة الله. وفيما يكون عمل الروح في الداخل سريا خفيا، يكون تأثيره في الحياة الخارجية ظاهرا جليا. وكل تجديد يتم في قلب الإنسان بفعل الروح القدس، تتجلى آثاره للعيان. وبينما لانستطيع أن نغير قلوبنا بأنفسنا أو نجعل حياتنا في توافق مع الله، وبينما لا يمكننا الركون الى ذواتنا أو الى أعمالنا الصالحة، إلا أن حياتنا ستعلن فيما إذا كانت نعمة الله قد تغلغلت في قلوبنا. وسيظهر التغيير حتما في صفاتنا وعاداتنا ومساعينا. فلا بد من أن يكون فرق واضح بين ما كنا عليه، وما صرنا إليه. غير أن المصادفات، صالحة

كانت أم طالحة، لا تكشف القناع عن حقيقة أخلاق الإنسان، وإنما يعلنها اتجاه حياته الدائم وأعماله وكلماته المعتادة.

نعم، قد يستطيع الإنسان أن يبدو للناس في مظهر لائق دون أن يكون متجددا بنعمة الله. وقد ينشئ حب النفوذ والرغبة في إعجاب الغير نظاما جميلا في حياته. وقد يؤدي به الاعتداد بالذات الى تجنب الشر. "وقد يجود البخيل"، فكيف إذن، والحالة هذه، نستطيع أن نحكم في أننا قد تجددنا أم لا؟ وإلى أي جانب ننتمي؟

ولكن لمن القلب؟ وفي من نفكر وعمن نتحدث؟ وبمن نتعلق حبا واشتياقا، ولأجل من نبذل أقصى الجهود؟ لأننا إن كنا للمسيح فبه نلهج وفيه نفكر واسمه نذكر وله نقف جميع مالنا، وإننا لنشتاق إذ ذاك الى أن نكون مثله، ونقتفي آثاره، ونمتلئ من روحه، ونطلب رضاه في كل شيء.

فكل الذين يصيرون في المسيح خليقة جديدة يُظهرون في حياتهم أثمار الروح التي هي، "محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح إيمان، وداعة، تعفف" غلاطية ٥: ٢٢و٢٣. فلا يعودون يسلكون حسب شهواتهم السابقة، بل بإيمان ابن الله يتبعون خطواته. ويحملون صفاته وسجاياه، ويطهرون أنفسهم كما هو طاهر، حتى لقد تراهم، فإذا هم يحبون ما كانوا يكرهون، ويكرهون ما كانوا يحبون. فالداعر الفاجر تراه وإذا هو قديس طاهر. والمتكبر الفخور تراه فإذا هو متواضع شكور. ومدمن الخمر تراه فإذا هو قد طرح الشر جانبا وتخلى

عن عادات العالم وطرقه. فالمسيحي لا يسعى للتحلي بالزينة الخارجية، لكن بإنسان "القلب الخفي، في العديمة الفساد، زينة الروح الوديع الهادئ الذي هو قدام الله كثير الثمن" ١بطرس ٣:٣و٤.

فليس من دليل على التوبة الصحيحة، إلا إذا شمل الحياة كلها تغيير فعلي وإصلاح حقيقي. فإذا قام الخاطئ برد ما ارتهنه، وتعويض ما أستلبه، والاعتراف بما اقترفه وارتكبه، وأظهر محبته لله، ولأخيه الإنسان، ليعلم أنه قد انتقل من الموت الى الحياة.

وعندما نأتي الى المسيح، كخطاة وأثمة، ونصبح مشاركين لنعمته الغافرة، تتفجر في قلوبنا ينابيع المحبة. فيصبح كل حمل خفيفا، لأن النير الذي يسمح به المسيح يسهل حمله. ويصير الواجب لذة، وتصبح التضحية غبطة ومسرة. ونرى الطريق الذي كان يبدو لنا مظلما مخيفا فإذا هو قد أصبح مزدانا بيسوع، شمس البر، ومغمورا بأشعته الجميلة.

يتجلى في أتباع المسيح سمو صفاته وكمال سجاياه. لقد كانت مسرة المسيح أن يفعل مشيئة الله، ولذلك ملكت حياته المحبة لله والغيرة على مجده، بل زانت المحبة جميع أعماله وحلت في كل تصرفاته. وليست المحبة إلا من الله. فلا يستطيع قلب الخاطئ أن ينشئها أو يُبرزها، إنما هي تسود فقط في القلب الذي يملك فيه يسوع. "فنحن نحبه، لأنه هو أحبنا أولا" ١يوحنا٤: ١٩. والمحبة مبدأ العمل في كل متجدد بنعمة الله،

تُلطف سجاياه، وتُقمع أهواءه، وتملك براعته وتستأصل عداوته، وترقق عواطفه. فهذه المحبة، إن عززتها النفس، تزين الحياة وتؤثر تأثيرا جميلا في كل من يراها.

يتعرض أولاد الله، ولا سيما حديثو الإيمان منهم، لغلطتين يجب أن يكونوا على حذر منهما. أولهما، وقد تقدم الكلام فيها، غلطة الاعتماد على جهودهم ظناً منهم أنهم يصيرون في وئام مع الله بأعمالهم. والحقيقة هي أن الذي يطلب أن يتقدس بحفظ ناموس الله يطلب المستحيل. فالأعمال التي يقوم بها الإنسان بدون المسيح تتلوث بالإثرة والخطية، لأن التقديس إنما هو بالإيمان بنعمة المسيح وحدها.

وأما الغلطة الثانية فهي نقيضة الأولى، ولا تقل عنها خطرا. وهي زعم بعضهم أن الإيمان بالمسيح قد حرر المؤمن من واجب الطاعة لناموس الله، وأنه ليس للأعمال شأن في الفداء لأن الإنسان يصير شريكا في نعمة المسيح بالإيمان فقط.

ولكن الطاعة هنا ليست مجرد إذعان، ظاهري، بل هي خدمة المحبة. فإن ناموس الله يعبر عن طبيعة الله ذاتها. وقد تجسم في هذا الناموس مبدأ المحبة. ولذلك هو أساس حكم الله في السماء وعلى الأرض. فإذا كانت قلوبنا قد تجددت على صورة الله واستقرت المحبة الإلهية في النفس، أفلا يتمثل ناموسه في حياتنا؟ ومتى ساد مبدأ المحبة في القلب وتجدد الإنسان حسب صورة خالقه فقد تم الوعد الذي جاء في الميثاق الجديد القائل: "أجعل نواميسي في قلوبهم وأكتبها في أذهانهم" عبرانيين ١٠:

١٦. وإذا كان الناموس مسطورا على القلب أفلا يكيف الحياة؟ فالطاعة المبنية على خدمة المحبة والولاء، هي علامة التلمذة الحقيقية الفارقة. لذلك يقول الكتاب "فان هذه هي محبة الله أن نحفظ وصاياه" ١يوحنا ٥: ٣. "من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه، فهو كاذب وليس الحق فيه" ١يوحنا ٢: ٤. فالإيمان إذن بدلا من أن يحرر الإنسان من واجب الطاعة، فإنه أي الإيمان وحده هو الذي يجعلنا شركاء في نعمة المسيح التي تقدرنا على تقديم الطاعة الكاملة.

على أن الخلاص لا يصير حقا لنا بالطاعة، إنما الخلاص هبة مجانية نتقبله من الله بالإيمان، وما الطاعة الا ثمرة الإيمان. لذلك يقول الرسول: "تعلمون ان ذلك أظهر لكي يرفع خطايانا وليس فيه خطية. كل من يثبت فيه لا يخطئ. كل من يخطئ لم يبصره ولا عرفه" ١يوحنا٣: ٥و٦. فالطاعة إذن هي المحك الحقيقي. لأن الذي يثبت في المسيح وتملك المحبة في قلبه تكون ميوله وأعماله وأفكاره وأهدافه مطابقة لإرادة الله المعلنة في وصايا شريعته المقدسة. "أيها الأولاد، لا يضلكم أحد، من يفعل البر فهو بار كما أن ذاك بار" ١يوحنا ٣: ٧. وأما مقياس البر فهو ناموس الله المقدس الذي أنزله على جبل سيناء والمتمثل في الوصايا العشر.

إذاً، فالإيمان المزعوم الذي يحرر الناس من التزامات الطاعة لناموس الله، ليس هو في الحقيقة إيمانا، بل تصلفا وتطاولا. صحيح أن الرسول بولس يقول: اننا "بالنعمة مخلصون بالإيمان" أفسس ٢: ٨. ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا أن

"الإيمان أيضا إن لم يكن له أعمال ميت في ذاته" يعقوب ٢: ١٧. ولقد أكد يسوع نفسه وجوب الطاعة للناموس إذ قال عن نفسه قبل مجيئه الى هذه الأرض، "أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررت، وشريعتك في وسط أحشائي" مزمور ٤٠: ٨. وقال أيضا قبل صعوده الى السماء "أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته" يوحنا ١٥: ١٠. وكذلك يقول الروح القدس على لسان يوحنا "بهذا نعرف أننا قد عرفناه، إن حفظنا وصاياه. من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه فهو كاذب وليس الحق فيه ... من قال أنه ثابت فيه ينبغي أنه كما سلك ذاك، هكذا يسلك هو أيضا" ايوحنا ٢: ٣-٦. وقوله على لسان الرسول بطرس "فإن المسيح أيضا تألم لأجلنا، تاركا لنا مثالا لكي تتبعوا خطواته" ابطرس ٢: ٢١.

يتبين من هذا أن البر الكامل للناموس الإلهي أو الطاعة الكاملة، لا تزال هي شرط التمتع بالحياة الأبدية، كما كانت دائما منذ عهد أبوينا الأولين، وهما في جنة عدن قبل سقوطهما في الخطية. لأنه لو كان شرط آخر للحصول على الحياة الأبدية، دون الطاعة الكاملة لله، لظل باب الخطية مفتوحا على الدوام تتدفق منه سيول البؤس والشقاء، مما يقضي على سعادة الكون بأسره.

لقد كان في مقدور آدم، قبل السقوط، أن يصوغ سجايا بارة بالطاعة لناموس الله. ولكنه عصى فسقط، وبخطيته وُلدنا نحن بطبيعة ساقطة، ولا نستطيع أن نغير طبيعتنا فنصير أبرارا. ولا يمكننا، ونحن نجسون، أن نؤدي الطاعة الكاملة لناموس

مقدس. وليس لنا بر ذاتي به نُوفي مطاليب ناموس اللــه. ولكـن المسيح فتح لنا باب النجاة إذ عاش على الأرض فتعـرض لكـل مانتعرض له نحن من تجارب الحياة وشـدائدها، وانتصـر. فقـد عاش بلا خطية ثم مـات لأجلنـا، وهـو مستعد لأن يحمـل عنـا خطايانا ويهبنا بره. فإذا أنت سلمته نفسك وقبلته فاديا ومخلصـا لك حُسبت بارا كأنك لم تخطئ قط، إذ إن صفاته قد حُسبت لـك فصارت صفاتك.

وفضلا عن ذلك، فإن المسيح يغير القلب ويحل فيـه بالإيمـان. فعليك أن تحتفظ بصلتك بالمسـيح، بالإيمـان، وتعمـل علـى إخضاع إرادتك له إخضاعا مستمرا. وما دمت تفعل ذلك، فإنـه يعمل فيك أن تريد وان تعمل من أجل المسرة، لكي تستطيع أن تقول، "ما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمـان، إيمان ابن الله، الـذي أحبنـي، وأسلم نفسـه لأجلـي" غلاطيـة ٢: ٢٠. ولذلك قال المسيح لتلاميذه، "لأن لستم أنتـم المتكلميـن بـل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم" متى ١٠: ٢٠. وإذ يكون المسيح عـاملا فيك، تستطيع أن تظهر روحه، وأن تعمل أعماله، أعمـال البر الفضلى التي هي الطاعة المثلى.

وإذن، فليس لنا في أنفسنا ما يحملنا على التفاخر، أو يُسوّغ لنـا التعاظم لأن أساس رجائنا، إنما هـو بـر المسيح المحسوب لنـا وما يعمله الروح فينا وبنا.

وإذ نتكلم عن الإيمـان يجـب أن يكـون فـي فكرنـا التمييز بيـن الإيمـان الحقيقـي ومجـرد التصديـق. لأن الشـيطان نفسـه لا

يستطيع أن ينكر وجود الله، ولا أن يتجاهل قدرته أو يكذب صدق أقواله. كما أثبت ذلك الرسول يعقوب في قوله، "الشياطين يؤمنون ويقشعرون" يعقوب ٢: ١٩. إلا أن إيمان الشياطين ليس إيمانا للخلاص إذ ليس فيه خضوع لإرادة الله. وأما الإيمان الذي يحدو الإنسان على تسليم قلبه وإرادته لله وتثبيت عواطفه فيه، والاتكال عليه، فهو الإيمان الصحيح، الإيمان العامل بالمحبة الذي يطهر النفس ويجدد في صاحبه صورة الله حتى أن القلب، الذي في حالة عدم تجدده ليس خاضعا لناموس الله، لأنه أيضا لا يستطيع، أصبح الآن يبتهج بالشريعة قائلا مع المرنم "كم أحببت شريعتك، اليوم كله هي لهجي" مزمور ١١٩: ٩٧. وهكذا "يتم حكم الناموس فينا نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح" رومية ٨: ١و٤.

وبين المؤمنين قوم يعرفون محبة المسيح الصفوح ويرغبون في أن يكونوا أولادا لله، غير أنهم يشعرون بأن حياتهم مليئة بالنقائص والعيوب مما يحملهم على الارتياب من أنهم تجددوا بالروح القدس. فلأمثال هؤلاء أقول، لماذا التخاذل؟ لأننا كثيرا ما نلتزم بعد قبولنا المسيح أن نبادر إليه ونرتمي عند قدميه معترفين بدموع سخية بخطايانا وتقصيراتنا، ولكن علينا أن لا نيأس، لأن الله، وإن كان العدو قد غلبنا، لا يرفضنا ولا يهملنا ولا يتركنا. فالمسيح عن يمين الآب يشفع فينا. وقد قال يوحنا الحبيب في هذا، "يا أولادي أكتب إليكم هذا لكي لا تخطئوا، وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار" ١يوحنا ٢: ١. ولا تنسى أيضا كلمات يسوع، "الآب نفسه يحبكم" يوحنا ١٦: ٢٧، وهو يريد أن يردك إليه ويطبع على حياتك طهارته

وقداسته. فإذا كنت تسلم نفسك له لا بد من أن يكمل العمل الصالح الذي ابتدأه فيك حتى يوم المسيح يسوع. فلنصل بأكثر لجاجة ولنؤمن إيمانا راسخا. وكلما شعرنا بضعفنا فلنزدد ثقة بقدرة الفادي ولنرتج الله لأننا بعد نحمده خلاص وجهنا والهنا. مزمور ٤٣: ٥.

إننا، كلما دنونا من يسوع. ازددنا شعورا بما فينا من نقائص وعيوب، إذ نرى أنفسنا على حقيقتها في ضوء الكمال الإلهي. وما الشعور بالنقص الا الدليل على أن خدع الشيطان قد بدأت تفقد قوتها علينا، وان الضمير قد بدأ يستيقظ من سباته ويبعث من موته، بفعل الروح القدس.

ولن تتأصل في قلوبنا محبة يسوع، ما لم نتحقق من إثميتنا، وندرك خطأنا. ولن نعجب بكمال الله وجماله، ما لم تتجدد قلوبنا بنعمته. فإن كنا لم نر بعد نقصنا الروحي، ولم ندرك ضعفنا الأدبي، فما ذلك إلا الدليل البين على أننا لم نعرف المسيح بعد، ولم نر محاسنه ومزاياه.

فكلما قل تقديرنا لأنفسنا، إزداد تقديرنا لطهارة المخلص وجماله اللذين لا حد لهما. واننا إذ ندرك خطأنا واثميتنا، نلجأ الى ذاك الذي يستطيع أن يعفو ويصفح. واذ نشعر بقصورنا وعجزنا، فانه يعلن ذاته بقوة. وكلما شعرنا بالحاجة اليه، والى كلمته، تجلت لنا بأكثر وضوح، صفاته الجليلة. وانطبعت في قلوبنا صورته الجميلة.

الفصل الثامن

النمو في المسيح

يُسمي الكتاب المقدس تغيير القلب – التغيير الذي به نصير أولاد الله – ولادة. ويُشبّه أيضا بنمو الزرع الجيد الذي بذره الفلاح في حقله، ويحض الذين تجددوا على أن ينموا "كأطفال مولودين الآن" الى أن يبلغوا "قياس ملء المسيح" ١بطرس٢:٢، أفسس ٤: ١٣، وان يثبتوا ويثمروا مثل الزرع لأنهم "أشجار البر غرس الرب للتمجيد" إشعياء ٦١: ٣. فمن هذه الأمثلة المستمدة من الحياة الطبيعية نستطيع أن نقف على بعض أسرار الحياة الروحية.

وليس في إمكان الإنسان مهما أحرز من الحكمة والمهارة أن يُنشئ حياة في أصغر شيء في الطبيعة، لأن مصدر الحياة هو الله، وبه وحده يحيا كل حي. وكذلك أيضا في العالم الروحي، لا تتولد حياة روحية في قلب الإنسان إلا بفعل الله. وان لم يولد الإنسان "من فوق" يوحنا ٣:٣ لا يستطيع أن يكون شريكا في الحياة التي جاء يسوع ليهبها للعالم.

وشأن الحياة هو شأن النمو بالذات، فالذي يجعل البرعم زهرا ويحول الزهر أثمارا هو الله الذي بقوته يجعل البذر "أولا نباتا ثم سنبلا ثم قمحا ملآن في السنبل" مرقس ٤: ٢٨. وقال هوشع النبي عن شعب الله إنهم يُزهرون كالسوسن و "يحيون حنطة ويُزهرون كجفنة" هوشع ١٤: ٥و٧. ويأمرنا يسوع أن نتأمل

"الزنـابق كيـف تنمـو" لوقـا ١٢: ٢٧. فـإن النبـات والزهـور لا تنمو باهتمامها، ولا تزهو بعنائها وكدها، ولكنها تنمـو إذ تتقبـل من الله ما أعده لنموها. والطفل لا يستطيع بقوته واجتهاده أن يزيد على قامته ذراعا. وكذلك في الحياة الروحيـة، لا تسـتطيع أنت أن تنمو باجتهـادك ومجهودك، إن الطفـل والنبـات ينميـان كلاهما بأخذهما من المحيط ما يخدم حياتهمـا - كـالهواء النقـي وضوء الشمس والطعام. فكهبات الطبيعة تلك بالنسبة للحيـوان والنبات، هكذا هو المسيح للواثقيـن فيـه. فهـو "نورهـم الأبـدي" "شـمس ومجـن" إشـعياء ٦٠: ١٩، مزمـور. ٨٤: ١١- فإنـه "لاسرائيل كـالندى". "ينـزل مثـل المطـر علـى الجـزاز ومثـل الغيوث الذرافة على الأرض" هوشع ١٤: ٥، مزمور ٧٢: ٦. وهو أيضا "الماء الحي" و "خبز الله" "النازل من السماء الواهب حياة للعالم" يوحنا ٦: ٣٣.

فالله إذ اعطى ابنه يسوع المسيح أحاط العالم بجـو مـن النعمـة كما يُحيط الهواء الكرة الأرضية. وكل من يختار أن يستنشـق هـواء هـذا الجـو المنعش يحيـا وينمـو الـى قيـاس قامـة مـلء المسيح.

وكما تتجه الزهور نحو الشمس لتستمد مـن أشـعتها مـا يُجملهـا ويُكمل تنسيقها، هكذا يجب أن نتجه صـوب شـمس بـر المسـيح الذي يضـيء علينا بنوره من السماء فننمو فـي حياتنـا الروحيـة حتى نصير مُشابهين لصورته.

وهذا عين ما علّم به يسوع في قوله: "اثبتوا فيّ وأنا فيكم، كما أن الغصن لا يقدر ان يأتي بثمر من ذاته، ان لم يثبت في الكرمة، كذلك أنتم أيضا ان لم تثبتوا فيّ ... الذي يثبت فيّ ... هذا يأتي بثمر كثير، لأنكم بدوني لا تقدرون ان تفعلوا شيئا" يوحنا ١٥: ٤و٥. فحاجة الغصن الى أصل الشجرة لكي ينمو ويُثمر هي حاجتك الى المسيح لكي تحيا حياة البر، اذ لا حياة لك إذا انفصلت عنه، ولا قوة لك على مقاومة التجارب أو النمو في النعمة والقداسة. ولكن إذا ثبتَّ فيه تكون مثل شجرة مغروسة على مجاري المياه، أوراقها لا تذبل ولا تكون عقيمة، بل تزهو وتثمر دائما.

غير أن الكثيرين يتصورون أن عليهم وحدهم أن يقوموا بقسط وافر من عمل النمو. فقد قبلوا من المسيح غفران الخطية مجانا، ولذلك يحسبون أن حاجتهم إنما هي أن يعيشوا باستقامة وكمال بجهودهم الذاتية. وأما كل محاولة كهذه فمصيرها الى الإخفاق والفشل، كما قال المسيح "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئا" يوحنا ١٥: ٤و٥. ففرحنا والحياة الخالية من الاثرة ونمونا في النعمة يتوقف كله على اتحادنا بيسوع. ولا يتسنى لنا أن ننمو في النعمة الا بمحادثتنا يسوع كل ساعة والثبوت فيه كل دقيقة. فالمسيحية هي المسيح أولا وآخرا ودائما وأبدا. فالمسيح هو رئيس إيماننا ومكمله إذ يجب أن يكون معنا في أول الطريق وفي نهايتها، بل في كل خطوة منها، والا فنصيبنا الفشل. وقد قال داود في ذلك "جعلتُ الرب أمامي في كل حين، لأنه عن يميني فلا أتزعزع" مزمور ١٦: ٨.

أتسأل، "كيف أثبت في المسيح؟" انك تثبت فيه بالكيفية نفسها التي بها قبلته أولا. وهاك ماكتبه الرسول بولس في هذا المعنى، "كما قبلتم المسيح يسوع الرب اسلكوا فيه" كولوسي ٢: ٦. "اما البار فبالإيمان يحيا" عبرانيين ١٠: ٣٨. فقد سلمت نفسك تسليما تاما لخدمة الله وطاعته، وقبلت يسوع مخلصا لك. لم يكن في مقدورك أن تكفر عن خطاياك ولا أن تغير قلبك، ولكنك حين سلمته تعالى نفسك آمنت بأنه أنعم عليك بهذا كله في المسيح. فبالإيمان إذن صرت للمسيح، وبالإيمان يتسنى لك أن تثبت فيه. إنه لأخذ وعطاء، أنت تعطيه الكل: قلبك وارادتك وخدمتك، وتأخذ منه الكل: ملء البركات وحلول المسيح في قلبك ليكون لك قوة وبرا وعونا أبديا، فيهبك القدرة على الطاعة الكاملة.

فبكّر الى الله في الصباح، وسلم له نفسك جديدا، ولتكن صلاتك اليه: "يارب اني لك بجملتي، وأضع كل تدبيراتي لهذا النهار في يديك لتستخدمني كيفما تشاء. كن معي، ولتكن أعمالي اليوم أعمالك". إن هذا لفرض عليك كل يوم أن تخصص نفسك لله كل صباح لتكون له طول النهار. وسلمه كل تدبيراتك لتنفيذها أو لإبطالها كما تشاء عنايته. وهكذا تكون مسلما حياتك لله ليصوغها ويصبها في قالب حياة يسوع فتصير مثله.

الحياة في المسيح هي حياة الراحة، وقد تكون خالية من فرط الشعور بالفرح. ولكن يجب أن يملأها السلام الدائم والثقة الثابتة إذ إن رجاءك ليس في ذاتك بل في المسيح الذي يُبدل

ضعفك بالقوة ويهبك عوض جهلك وعجزك الحكمة والبأس. لا تنظر الى نفسك ولا تركز تفكيرك في ذاتك بل تطلع الى المسيح، وتأمل محبته وجمال صفاته وكمالها، وتفكر في إنكاره لذاته واتضاعه وفي طهارته وقداسته وعطفه الذي لا يبارى – تلك هي المواضيع التي ينبغي أن تتأمل فيها النفس. فبمحبتك له وتمثلك به واعتمادك الكلي عليه تتغير الى صورته.

قال المسيح "اثبتوا فيَّ" يوحنا ١٥:٤. ومعنى الثبوت هو الراحة والطمأنينة والاستقرار. ثم دعانا قائلا: "تعالوا إلي ... وأنا أريحكم" متى ١١: ٢٨. وكلمات المرنم تعبر عن الفكرة ذاتها: "انتظر الرب واصبر له" مزمور ٣٧: ٧. ويؤكد إشعياء أنه "بالرجوع والسكون تخلصون، بالهدوء والطمأنينة تكون قوتكم" إشعياء ٣٠: ١٥. على أن هذه الراحة لا تعني التواني والكسل، لأن المخلص في دعوته قرن الوعد بالدعوة الى العمل إذ قال، "احملوا نيري عليكم ... فتجدوا راحة لنفوسكم" متى ١١: ٢٩. فبقدر ما يستريح الإنسان في المسيح يكون جده ونشاطه في العمل لأجله.

لكن إذا انصبَّ اهتمامنا على ذواتنا، فلا بد من أن نتحول عن مصدر حياتنا وقوتنا يسوع، فيبذل الشيطان إذ ذاك جُهدا جهيدا مستمرا ليبقى نظرنا مُنصرفاً عن المخلص فيمنع اتحادنا به ومحادثتنا اياه، ويشغلنا بملذات العالم وهموم الحياة وارتباكاتها وأحزانها وأخطاء الغير، وبأخطائنا نحن ونقائصنا. وهكذا يسعى الى أن يلهينا عن المسيح. فلنتنبه لئلا يخدعنا بمكائده، لأنه كثيرا ما ينجح في تحويل ذوي الضمائر الحية والرغبة

الصادقة في العيش للمسيح، الى التأمل في غلطاتهم وضعفاتهم أملا منه في فصلهم عن يسوع وإحراز الغلبة النهائية. فلا تهتم لنفسك ولا تستسلم للقلق والخوف من جهة خلاصك، لأن هذا كله من شأنه أن يحولك عن مصدر قوتك، بل سلم نفسك لله واتكل عليه. وليكن حديثك عن يسوع وتفكيرك فيه الى أن يغمرك وتنسى نفسك. إطرح عنك كل شك وإبعد عنك كل خوف وقل مع الرسول بولس "أحيا لا أنا بل المسيح يحيا في. فما أحياه الآن في الجسد فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي" غلاطية ٢: ٢٠. توكل على الله فإنه قادر على أن يحفظ وديعتك فإن فوضت أمرك إليه يعظم انتصارك بالذي أحبك.

لقد ربط المسيح البشرية بنفسه، باتخاذه الصورة الإنسانية، برباط حبي لا تنفصم عراه أبدا، اللهم إلا باختيار الإنسان نفسه. لذلك تجد الشيطان دؤوبا في إغرائنا بشتى المغريات لعله يحملنا على قطع هذه الرابطة باختيارنا والانفصال عن المسيح برغبتنا. فمن ثم يجب أن نسهر ونجاهد ونصلي لكيلا يستغوينا غاو على أن نختار سيدا آخر – فلنا دائما ملء الحرية أن نختار لأنفسنا ما يحلو لنا – ولكن تتبق أعيننا مثبتة على المسيح وهو سيحفظنا، فما دمنا نلتفت إليه نحن آمنون، لا يستطيع أحد أن يخطفنا من يده. وبالنظر إليه باستمرار "نتغير الى تلك الصورة عينها من مجد الى مجد، كما من الرب الروح" ٢ كورنثوس ٣: ١٨.

أجل، بهذه الوسيلة استطاع التلاميذ الأولون أن يتشبهوا بمخلصهم العزيز. فهم إذ سمعوا كلماته شعروا بحاجتهم إليه وإذ طلبوه وجدوه فتبعوه. ورافقوه أثناء جلوسه الى المائدة في البيت، ولازموه في المخدع وصحبوه الى الحقول، وكانوا معه كالتلميذ مع المعلم يتلقن منه دروسا يومية في قداسة الحق. ونظروا إليه كما ينظر العبد الى سيده لكي يتعلموا واجبهم، ومع ذلك كانوا أناسا "تحت الآلام مثلنا"، يعقوب ٥: ١٧، يُحاربون الخطية كما نحاربها نحن، ويحتاجون الى نعمة ربهم لكي يحيوا حياة مقدسة.

فحتى يوحنا ذلك التلميذ المحبوب الذي بانت عليه صورة المخلص أكمل بيان، لم تكن سجاياه السامية فطرية. فهو لم يكن فقط مُدَّعيا العظمة وطموحا الى الكرامة، بل كان أيضا مُتهورا شديد الامتعاض إذا أصابه أذى. ولكنه إذ تجلت له صفات ذلك الإنسان الإلهي، أدرك عجزه، فقاده الإدراك الى الاتضاع. إن ما رآه يوحنا في حياة ابن الله اليومية من القوة والصبر، من القدرة والرقة، من الجلالة والوداعة، ملأ نفسه بالإعجاب والمحبة. فارتكزت عواطفه في المسيح، وتقوت يوما فيوما الى أن نسي نفسه واستغرق في حب سيده العظيم. فسلم طبيعته الحادة إليه ليصبها في قالبه، وليخلق فيه بالروح القدس قلبا جديدا، وليغير بمحبته صفاته تغييرا كاملا شاملا. إن هذه النتائج تلازم حتما كل اتحاد بالمسيح. فمتى حل المسيح في القلب تتغير الطبيعة من أصلها، لأن روح المسيح يليّن القلب ومحبته تخضع النفس، فتسمو الأفكار الى السماء وتعلو الرغائب الى الله.

صعد المسيح الى السماء ولكن تابعيه ما فتئوا يشعرون بحضوره معهم حضورا شخصيا، يشملهم بمحبته ويُرشدهم بنوره. فبعد أن ذهب عنهم مخلصهم الذي سار معهم وتحدث اليهم وصلى معهم وأحيا فيهم الرجاء وعزى قلوبهم، نعم، بعد أن ذهب عنهم وعلى شفتيه رسالة السلام، رجع اليهم من سحابة الملائكة صدى وعده، "وها أنا معكم كل الأيام الى انقضاء الدهر" متى ٢٨: ٢٠. صعد يسوع الى السماء وهو بالهيئة البشرية . وتيقن التلاميذ أنه أمام عرش الله صديقهم ومخلصهم. فلم يطرأ على عواطفه تغيير بل لم يزل واحدا من البشرية المتألمة يُقدم أمام الآب استحقاق دمه وجروح يديه ورجليه تذكارا للثمن الذي دفعه لأجل مفدييه. وعرفوا أنه إنما عاد الى السماء ليعد لهم منازل، وأنه سيأتي أيضا ويأخذهم ليكونوا معه الى الأبد.

حين اجتمعوا معا بعد صعوده، كان شوقهم عظيما الى الصلاة باسمه. كانوا يجثون بكل خشوع ويرددون ذلك الوعد القائل "إن كل ماطلبتم من الآب باسمي يعطيكم. الى الآن لم تطلبوا شيئا باسمي. اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملا" يوحنا ١٦: ٢٣و٢٤. وما انفكوا يرفعون يد الايمان مُرددين هذه الحجة القوية بقولهم إن المسيح "الذي مات بل بالحري قام أيضا، الذي هو أيضا عن يمين الله، الذي أيضا يشفع فينا" رومية ٨: ٣٤، حتى حل يوم الخمسين. فوافاهم المعزي الذي قال عنه المسيح إنه "يكون فيكم" يوحنا ١٤: ١٧. وواصل حديثه لهم مؤكدا، "أنه خير لكم أن انطلق، لأنه إن لم انطلق لا يأتيكم المعزي

ولكن إن ذهبت أرسله اليكم" يوحنا ١٦: ٧. ومنذ ذلك الحين أصبح المسيح يحل في قلوب المؤمنين من خلال الروح القدس حلولا دائما، بل أصبح أقرب منهم وأوثق صلة بهم مما كان في أيام حضوره الشخصي معهم. وصارت محبته ونعمته وقوته أكثر تجليا في حياة أولاده، حتى ان كل من رآهم "تعجب وتأكد أنهم كانوا من أتباع يسوع" أعمال ٤: ١٣.

ما كانه المسيح لتلاميذه الأولين، هذا يريد أن يكونه للمؤمنين به في هذه الأيام. ويتضح ذلك من صلاته التي صلاّها قائلا: "ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط بل أيضا من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم" يوحنا ١٧: ٢٠.

وقد صلى لأجلنا وابتهل الى الله لكي نكون واحدا، كما أنه هو والآب واحد. فقد قال المخلص عن نفسه، "لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئا" يوحنا ٥: ١٩. "الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال" يوحنا ١٤: ١٠. فإذا كان المسيح حالا في قلوبنا، لا بد من أن يعمل فينا لكي نريد و نعمل لأجل المسرة، فيلبي ٢: ١٣. فنعمل كما عمل هو ويتجلى فينا الروح الذي تجلى فيه. وهكذا إذ نحبه ونثبت فيه "ننمو في كل شيء الى ذاك الذي هو الرأس المسيح" أفسس ٤: ١٥.

الفصل التاسع

العمل والحياة

إن اللـه لمصـدر الحيـاة والنـور والسـعادة للعـالمين، تنبثـق منـه البركات لجميع مخلوقاته كما تنبعث من الشمس أشعتها المنعشة وكما تتفجر من العين مياهها الحية. وعندما تملأ حياة الله قلـب الانسان تفيض منه حاملة المحبة والبركة للآخرين أيضا.

اغتبط المسيح أن يفـدي الإنسـان الهـالك وتهلـل أن يرفعـه الـى الله، ولم يحسب حياته ثمينة عنده لإنجاز هذا العمل، بـل بذلهـا "واحتمل الصليب مُستهينا بـالخزي" عـبرانيين ١٢ : ٢. وهكـذا الملائكة أيضا، فإنهم يسعون دائمـا فـي إسـعاد الآخريـن. وفـي عملهم هذا يجدون لذة وسرورا. فالخدمة التي يحسبها كل محب لذاته بالعمل المهين له، خدمة التعسـاء الذيـن هـم دونـه أخلاقـا ومقاما، إنما هي الخدمة التي يقوم بها ملائكة الله الأطهـار. إن روح المسيح المُنكرة لذاتها في أعمال المحبة للغير هي الـروح التي تسود السماء وهي جوهر سعادتها. وستتصـف أعمال أتباع المسيح بالروح ذاتها.

متى حلت محبة المسيح في القلب تكون فيـه كالمسـك الـذي لا تخفى رائحته. فتأثيره المقدس سيشعر بـه كـل مـن نحتك بهـم. ومتى ساد روح المسيح في القلب يكون فيـه كـالعين فـي القفـر تفيض مياهها لتنعش المعيي وتولد فيه الشوق الى الاستقاء مـن ينبوع الحياة الأبدية.

من مظاهر المحبة ليسوع أن يسعى المحب في النسج على منواله فيعمل عمله في إسعاد الناس ومن خصائصها أن تبدي العطف والشفقة والمؤاساة لكل مَن تشمله العناية الإلهية الأبوية.

لم يعش المخلص على الأرض عيشة الدعة والراحة. ولم ينهمك في خدمة نفسه، بل كانت حياته جهادا دائما ونضالا دائبا لخلاص المنكوبين الهالكين. ولم يعرف من المذود الى جلجثة إلا التضحية وإنكار النفس، فلم يطلب يوما العفو من واجب مُضنٍ، ولم يحاول التخلص من وعثاء السفر، ولم يهرب من عمل شاقٍ، إذ إنه "لم يأتِ ليُخدَم بل ليَخدِم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين" متى ٢٠ : ٢٨. فالخدمة كانت غاية حياته العظمى والوحيدة. وما عداها كان ثانويا ومما يُستخدم في سبيل بلوغ الغاية المنشودة. ولم يكن من شيء ليُشبع نفسه ويُروي ظمأه كعمل مشيئة الآب، حتى أن حياته خلت من الإثرة ومحبة الذات خلوا تاما مُطلقا.

كل من يقبل نعمة المسيح فمثله يكون على استعداد للقيام بأية تضحية حتى يتسنى لجميع الذين مات عنهم يسوع أن يشتركوا في قبول الهبة السماوية. هو يسعى أيضا الى جعل العالم مكانا أفضل للعيش فيه. فمثل هذا النمو الأكيد هو الثمرة الطيبة التي يأتي بها المتجدد الحقيقي. وهو ما أن يُقبل الى المسيح حتى تتولد في نفسه الرغبة في المناداة بالصديق الحميم الذي وجده في شخصه الكريم، وفي إعلان الحق الذي خلصه وقدسه

والذي لا يمكن إخفاؤه في قلبه. لأن الذي قد لبس بر المسيح وامتلأ قلبه من فرح الروح لا يستطيع السكوت عما اختبره بعد أن ذاق وعرف "ما أطيب الرب" مزمور ٣٤ :٨. وكما فعل فيلبس الذي إذ وجد المسيح ذهب توا وفتش عن نثنائيل ودعاه قائلا :"تعال وانظر" يوحنا ١ :٤٦ ، كذلك يحاول كل متجدد أن يدعو الآخرين الى حضرته ويعرض عليهم فضائل المسيح وأن يعرفهم بغنى العالم غير المنظور. وهو في ذلك يشتاق اشتياقا عظيما الى أن يرى الجميع فيه "حمل الله الذي يرفع خطية العالم" يوحنا ١ : ٢٩.

لا شك في أن كل مسعى نبذله لإسعاد الآخرين يعود علينا بالبركات المضاعفة حسب قصد الله من إشراك الإنسان معه في إنجاز عمل الفداء. وقد وهب تعالى للناس أن يصيروا شركاء الطبيعة الإلهية وأن يعملوا، هم بدورهم، على إشراك بني جنسهم في هذه البركة. إن هذا لأسمى شرف وأعظم فرح يستطيع الله القدير أن يجود بهما على البشر. فالذين يُشاركون الله في أعمال المحبة هم إليه أقرب المقربين.

كان من الممكن أن يسند الله الكرازة بالإنجيل الى الملائكة السماوية وأن يكل إليهم أمر توزيع بركات المحبة، أو أن يستخدم وسيلة أخرى من الوسائل المتوافرة لديه لإنجاز مقاصده. ولكنه تعالى، اختارهم أن يكونوا هم العاملين معه ومع المسيح والملائكة ليكون لهم نصيب وافر من البركات والأفراح والرفعة الروحية التي تنجم عن هذه الخدمة الجليلة.

ومن بركات الشركة في آلام المسيح أنها تُولد في القلب عطفا مع المسيح، فالتضحية في الخدمة لخير الآخرين تُقوي الانسان على الجود والإحسان وتوثق صلته مع فادي الأنام "الذي افتقر وهو الغني لكي تستغنوا أنتم بفقره" ٢ كورنثوس ٨ :٩ . وما لم نتمم قصد الله من خلقنا لا تكون الحياة بركة لنا.

إن خصّصتَ نفسك لعمل كل ما يُريده المسيح من تلاميذه، وسعيتَ الى ربح النفوس الهالكة، لا بُد من أن تشعر بحاجة الى اختبار أنجع ومعرفة أوسع في الأمور السماوية، لأنك تجوع وتعطش الى البر وتتوسل الى الله أن يُقوي إيمانك ويسقيك جرعات أغزر من ينبوع الخلاص. أما المقاومة والصعاب التي تُلاقيها، فإنها تقودك الى درس كلمة الله والى المُداومة على الصلاة، فتنمو في نعمة المسيح ومعرفته وتسعد باختبارات ثمينة غنية.

إن التضحية في العمل لأجل الغير، التضحية الخالية من الإثرة، لتكسب الأخلاق عُمقا وثباتا وجمالا مسيحيا. وتملأ القائم بها سلاما وسعادة، وترفع الأماني وتُطهرها ولا تترك مجالا للتراخي والانانية. إن من شأن الفضائل المسيحية أن تنمي قوى ممارسها للعمل من أجل الرب، وتمنحه بصيرة ثاقبة وإيمانا وطيدا مُتزايدا وقدرة مُقتدرة في الصلاة. فالروح القدس، إذ يعزف على أوتار النفس يُخرج منها نغما يتجاوب مع النغمة الإلهية. واولئك الذين يقفون حياتهم على السعي المُضحي الى نفع الآخرين، إنما هم في الواقع يعملون على خلاص أنفسهم.

على أن الطريقة المثلى للنمو في النعمة هي أن نشتغل بإخلاص في العمل المفروض علينا، وأن نبذل قصارى جهدنا لمساعدة من هم في حاجة الى معونتنا. فإنما تتزايد قوتنا، بالمران والعمل، لأن النشاط هو من مستلزمات الحياة وضروراتها. إن أولئك الذين يسعون الى المحافظة على الحياة المسيحية بقبولهم البركات التي تأتيهم عن طريق وسائط النعمة، دون أن يعملوا شيئا لأجل المسيح، مثلهم كمثل مَن يُحاول أن يأكل دون أن يشتغل أو يعمل. مثل هذا التصرف ينتج عنه دائما الانحطاط والتدهور في كل من العالم الروحي والطبيعي، لأن الإنسان الذي يرفض أن يستخدم أعضاءه لا بُد من أن يفقد القدرة على استعمالها. والمسيحي الذي لا يستخدم القوى المعطاة له من الله لا يتوقف فقط عن النمو في المسيح، بل أيضا يفقد القوة التي كانت له.

وقد جعل الله كنيسة المسيح أداة لتخليص البشر، ووكل اليها مهمة تبليغ الإنجيل في كل أنحاء العالم. فهذه المسؤولية ملقاة على عاتق المسيحيين أجمعين، ويتعين على كل إنسان أن يعمل على تحقيق هذه المهمة بحسب ما تيسر له من الفرص والمواهب. إن المحبة التي أعلنها لنا المسيح، تجعلنا مديونين لكل الذين لم يعرفوا المخلص بعد، إذ إن الله قد وهبنا نورا، لا لكي نستأثر به لأنفسنا، بل لنضيء به على الآخرين.

فلو أن أتباع المسيح كانوا مُتنبهين لواجبهم وحريصين على أداء مهمتهم، لكان الذين يقومون اليوم بنشر رسالة الإنجيل في

البلاد الوثنية يُعدون بالألوف بدلا من الآحاد القلائل الذين يعملون اليوم.ولكان اولئك الذين لا يستطيعون أن يندمجوا في سلك العمل الكرازي بأنفسهم يخدمون قضية المسيح بأموالهم وعطفهم وصلواتهم، ولوجدنا في البلدان المسيحية، غيرة أكثر واجتهادا أوفر لربح النفوس.

ولسنا في حاجة الي أن نذهب الى تلك الأقطار الوثنية البعيدة لنخدم المسيح، أو نغادر محيطنا الضيق الذي نعيش فيه إن كان هو المكان الذي يجب علينا أن نعمل فيه من أجل المسيح. فنستطيع أن نخدم ونحن في المحيط العائلي وفي الكنيسة، كما نستطيع أن نخدم أيضا بين من نخالطهم ونزاملهم ونعمل معهم.

قضى مخلصنا الشطر الأكبر من حياته وهو يعمل في حانوت نجار بمدينة الناصرة، وقد كانت الملائكة تخدمه، وهو يسير جنبا الى جنب مع الفلاحين والعمال الذين لم يُلقوا عليه بالاً ولم يعيروه التفاتا مع أنه رب الحياة. وكان يؤدي رسالته بكل صبر وأمانة في حرفته المتواضعة، كما كان يُؤديها وهو يشفي مريضا، أو وهو يمشي على بحر الجليل الهائج المائج. وهكذا يمكن كل انسان أن يكون في خدمة يسوع، وهو يُمارس أوضع الحرف وأحقر الأعمال.

ولذلك يقول الرسول بولس: "ما دُعي كلٌ واحد فيه أيها الإخوة فليلبث في ذلك مع الله" ١ كورنثوس ٧: ٢٤. فالتاجر يستطيع أن يُدير عمله بكيفية تمجد سيده، إذا راعى الأمانة في شغله.

واذا كان تابعا أمينا للمسيح، فسيجعل ديانته تتخلل كل معاملاته، ويُظهر روح المسيح في كل تصرفاته. والصانع يُمكنه أن يكون مُجدًا وأمينا، ممثلا سيده الذي كان يكدح مؤديا رسالته في أبسط الاعمال وأصغرها بين تلال الجليل. وهكذا يجب على كل من يُسمي اسم المسيح، أن يؤدي عمله على الوجه الذي يقود فيه الآخرين الى تمجيد خالقهم وفاديهم.

غير أن الكثيرين يعتذرون عن تقديم خدماتهم للمسيح، بحجة أنهم ليسوا كغيرهم ممن خصهم الله بمزايا عظمى، ومواهب ممتازة. حتى لقد ساد عند بعضهم الاعتقاد بأن التكريس للخدمة يستلزم كفاءات نادرة ومؤهلات خاصة لا تتوافر إلا في فئة قليلة من الناس الذين خصّهم الله دون سواهم بالمساهمة في الخدمة والجزاء. ولكن هذه الفكرة لا تتفق والمثل الذي ضربه المسيح إذ أوضح أن رب البيت دعا عبيده وأسند الى كل واحد منهم عمله الخاص.

فإن كان لنا روح المحبة، يمكن أن نُؤدي أحقر واجبات الحياة، "من القلب كما للرب" كولوسي ٣ :٢٣. واذا كانت محبة الله في قلوبنا، فإنها تتجلى في حياتنا، فتنبعث منا رائحة المسيح الزكية، ويكون تأثيرنا في الآخرين عاملا على رفعتهم وإسعادهم.

فما عليك أن تنتظر حتى تتهيأ لك فرص عظيمة، وتحصل على مواهب خارقة العادة لكي تستطيع أن تخدم الله. يجب ألا تكون مشغولا بما يفتكر به العالم عنك، لأنه إذا كانت حياتك

تشهد بطهارة إيمانك، وإخلاص بواعثك، وشدة رغبتك في خدمة الناس ونفعهم، فإن جهودك لن تضيع هباء.

وهكذا يستطيع أفقر إنسان وأحقر مخلوق من تلاميذ يسوع أن يكون بركة للآخرين. وقد لا يشعر بأنه يأتي عملا يُذكر في هذه الحياة، ومع ذلك فانه بتأثيره الخفي يُحدث نتائج بعيدة المدى، إذ تتبارك، بسبب حياته وقدوته جموع غفيرة من الناس. وربما يظل غير شاعر بمثل هذا التأثير في حياة الآخرين حتى ذلك اليوم الذي يكافأ من الله. فأمثال هذا لا يشعرون أو يعرفون أنهم يقومون بأي عمل عظيم، فليس المطلوب منهم أن يقلقوا بالنسبة لنجاحهم، وإنما عليهم فقط أن يسيروا في هذه الحياة قدما، مؤدين عملهم في هدوء وأمانة، بحسب الدعوة التي دُعوا اليها. فهؤلاء لن يُضيعوا حياتهم سُدى، بل هم سيظلون في نمو مطرد حتى يُصبحوا مُشابهين لصورة المسيح ومثاله. وإذ هم عاملون مع الله في هذه الحياة، فهم بذلك إنما يُهيئون أنفسهم لذلك العمل الأسمى، والفرح الخالص المعدين لهم في الحياة الأخرى.

الفصل العاشر

التعرف بالله

كثيرة هي الطرق التي بها يسعى الله ليقودنا إلى معرفته، وإلى الوئام والشركة معه. وتناجي الطبيعة مدركاتنا إناء الليل وأطراف النهار. ويتأثر القلب المفتوح بمجد الله كما تعكسه أعمال يديه. وتسمع الأذن الصاغية وتدرك همسات الله من خلال الطبيعة ذاتها. فكأني بالحقول الخضراء والأشجار الباسقة، وبالسحب المارة والغيوث السارة، وبخرير السيل وجمال مجد السماء تحدثنا عن خالقها وتدعونا إلى التعرف به.

لقد مثل مخلصنا تعاليمه بما في الطبيعة، وقارن الحقائق الأبدية الثمينة التي نطق بها بالأشجار والأطيار وبزهور الوهاد وكروم النجاد، وبالبحيرات الرائقة والسماوات الرائعة، وألحقها بحوادث الحياة العادية وأحوالها اليومية لكيلا تغرب عن ذاكرة سامعيه بل يتعظوا بها وسط انهماكات الحياة وأتعابها الكثيرة.

يريد الله أن يستمتع أولاده بحسن صنعته ويبتهجوا بالجمال البسيط المحتشم الذي زين به مسكننا الأرضي هذا، لأن اللّه يحب الجمال، ولا سيما جمال الأخلاق الذي يفضله على كل زينة خارجية مهما كانت. ويشتاق إلى أن يرانا مرتدين جمالاً كجمال الزهور الهادئ العجيب.

لو تأملنا أعمال الله لتعلمنا منها دروسا ثمينة في الطاعة له والاتكال عليه، من كل ما في الطبيعة من الأجرام الفلكية الكبيرة التي على مدى الأجيال تتبع مداراتها المتسعة المعينة لها، وكل ما في الكون من ذرات صغيرة أيضا، تطيع إرادة خالقها وهو يعتني بها ويقوم بحاجتها، وإن الذي يحمل العوالم الكثيرة السابحة في الفضاء الفسيح، هو الذي يعتني أيضا بالعصافير التي تغرد تمجيدا لخالقها بلا خوف أو وجل، وهو الذي يهيمن على العامل إذ يخرج لعمله اليومي كما يهيمن عليه في المخدع وفي أثناء رقاده وحين قيامه من النوم، وإنه لا يفتأ يراقب الغني إذ يولم في قصره الولائم الفاخرة كما يراقب الفقير إذ يجمع أولاده حول مائدته البسيطة ليقاسمهم خبزه الحاف. فليس من دمعة تذرف إلا ويراها الله، وليس من ابتسامة إلا ويلاحظها بشوق واهتمام.

لو آمنا بهذه القدرة ووثقنا بهذه العناية لطرحنا عنا كل اهتمام زائد ولأبعدنا عنا كل خيبة أمل، بل وتركنا جميع أمورنا صغيرة أكانت أم كبيرة، بين يدي القدير الذي لا تحيره كثرة العناية ولا يثقله تعب الرعاية. ولكنا نمتع نفوسنا بالراحة التي طالما اشتقنا اليها.

إذ تبتهج مداركك بجمال الأرض الخلاّب اجتهد أن تتصوّر في مخيلتك الأرض الجديدة التي لا تشوبها خطية ولا تمتد إليها سلطة الموت ولا يظهر عليها ظل اللعنة. ثم إذا بلغت الحد في تصورك أعلم أنها ستكون أجمل وأمجد بكثير من كل تصوراتك، لأنك لا تستطيع أن ترى الآن، مع تنوع عطايا الله

في الطبيعة إلا لمحة خاطفة من مجده السني، كما هو مكتوب "ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه" اكورنثوس٢: ٩

قد يُفصح الشعراء في وصف جمال الطبيعة ويبالغ العلماء في الكلام عن غرائبها. وأما الذي يتمتع بها تمتعا مشبعا فهو المؤمن لأنه يرى فيها عمل يد أبيه ويميز دلائل حبه تعالى في زهورها وأشجارها وأثمارها. وأما الذي لا يميز محبة الله في النجاد والوهاد، وفي الأنهر والأبحر، فلا يعرف معناها ولا تناجيه بما تكنه له من محبة وعناية.

يكلمنا الله أيضا في عنايته بنا ويناجينا بفعل روحه القدوس فينا. فإن حوادث عنايته والتقلبات التي نشاهدها من يوم إلى يوم، لو فطنا لها، لتعلمنا عن محبة بارينا. وقد أنشد المرنم في ذلك واصفاً العناية الالهية الدائمة فقال، "امتلأت الأرض من رحمة الرب" و "من كان حكيماً يحفظ هذا ويتعقل مراحم الرب" مزمور٣٣: ٥؛ ١٠٧: ٤٣

يخاطبنا الله كذلك في كلمته المُنزلة، وفيها يعلن صفاته بصيغة واضحة جلية إذ يعرفنا فيها بأعماله العظيمة في فداء الإنسان ويسرد أمامنا تاريخ الآباء والأنبياء القديسين " الذين كانوا تحت الآلام مثلنا " يعقوب ٥ : ١٧. وجاهدوا في أحوال كأحوالنا الصعبة، وولوا هاربين مُنهزمين مثلنا، ثم عادوا وتشجعوا وانتصروا بنعمة الله . ونحن إذ نراهم نتشجع ايضا في سعينا وراء البر . واذ نقرأ عن اختباراتهم الثمينة وتمتعهم بالنور

والمحبة والبركة، وعن العمل الذي قاموا بـه بنعمـة اللـه وعـن الروح الذي أظهروه ، يُضرم في قلوبنا لهيب الاشتياق الـى أن نقتدي بهم وأن نكون مثلهم وأن نسير مع الله كما ساروا معه.

قال يسوع عن كتب العهد القديم إنها "هي التي تشهد لي" يوحنـا ٥: ٣٩. وما قاله عن العهد القديم يصـدق بـالأحرى عـن كتـب العهد الجديد، لأن الكتـاب المقـدس كلـه لا يُخبرنـا إلا بالفـادي الذي بدونه يكون الجنس البشري الهالك عديم الأمل في الحياة. نعم ، إن المسيح هـو موضـوع إعـلان الكتـاب. فمـن الكلمـة الاولى، "في البدء خلـق اللـه السموات والأرض" تكويـن ١ :١ إلى الأخيرة "ها أنا آتي سريعا" رؤيا ٢٢ :١٢ لا تقـرأ الا عـن أعمالـه ولا تسـمع إلا صوتـه، فـإذا أردت أن تتعـرف بيسـوع عليك بقراءة الكتب المقدسة .

املأ قلبك اذا بكلمة الله ، لأنها المـاء الحـي الـذي يـروي لظـى عطشك. كمـا أنهـا الخـبز الحـي مـن السـماء الـذي يُشـبع فـرط جوعك. ولقد صرح يسوع بذلك قائلا "إن لـم تـأكلوا جسـد ابـن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم" يوحنا ٦: ٥٤ . ثـم أردف مُوضحا معناه "الكلام الذي أكلمكـم بـه هـو روح وحيـاة" عدد ٦٣. فكما أن أجسادنا تتغذى وتبنى مما نتعاطاه من مأكل ومشرب ، كذلك أرواحنا أيضا، فإنها تستمد قوة وشـجاعة ممـا نتأمل فيه من الأمور الروحية الأبدية.

إن موضوع الفداء العجيب لمسألة " تشـتهي الملائكـة أن تطلّـع عليه". وهو سيكون موضوع دراسة المفديين وموضوع ترنمهم

وتهللهم مدى الدهور الأبدية. اذاً ، أفليس هو الآن جديرا بالتفكير العميق والاعتبار الجدي الدقيق؟ بلى ، لأن محبة المسيح ورحمته وتضحيته العظيمة من أجلنا لتستلزم أعمق التأمل وأوفر التفكير. يجب أن نطيل التبصر في صفات فادينا وشفيعنا ونديم النظر في رسالة ذاك الذي أتى ليخلص شعبه من خطاياهم. فإن التأمل في هذه المواضيع السماوية يُقوي محبتنا ويزيد ايماننا ويملأنا ثقة ومحبة. فتصعد صلواتنا اذ ذاك مقبولة عند الله لأنها تصدر عن ذهن مُستنير وعاطفة مُضطرمة وثقة ثابتة بيسوع واختبار حي في قوته القادرة أن تخلص " الى التمام الذين يتقدمون به الى الله " عبرانيين ٧ : ٢٥ .

عندما نتأمل مليا في كمالات المخلص يتولد فينا شوق شديد الى تغيير كامل وتجديد شامل لنشترك في قداسته وطهارته. ذلك لأننا نزداد جوعا وعطشا الى التشبه به، حتى اذا صار الفادي الموضوع الشاغل في أفكارنا نلهج به في كلامنا ونظهره للعالم في حياتنا وأعمالنا.

هذا وليس الكتاب المقدس للعلماء فقط، بل قد خُصص أيضا لعامة الناس وجاءت فيه الحقائق العظمى بشأن الخلاص واضحة وُضوح الشمس في رائعة النهار حتى لا يخطىء أحد الطريق ولا يضل عن سواء السبيل الا من استقل برأيه وحاد عمدا عن مشيئة الله المُعلنة الجلية.

يجب ألا نكتفي من شهادة إنسان ما بما يقول الكتاب المقدس، بل يجب أن نطالع كلمة الله بأنفسنا. إن اتكالنا على دراسة غيرنا يشل نشاطنا ويُميت مواهبنا ويُضعف فينا القوى العقلية الثمينة التي لا تنمو إلا باستخدامها في مواضيع سامية يتطلب استيعابها مجهودا عظيما مُتواصلا. واذا حدث ذلك نفشل في إدراك معنى كلمة الله. إن العقل إذا استُعمل في درس مواضيع الكتب المقدسة وفي مُقابلة الآية بالآية ومُقارنة الروحيات بالروحيات ليتّسع اتساعا عجيبا بيّنا .

ليس ما يُقوي الإدراك مثل درس كلمة الله، وليس ما يرفع الأفكار ويكسب العقل حذاقة مثل التأمل في الحقائق الكتابية العميقة المُهذِّبة. فلو درس الإنسان الكلمة كما يجب لوجد فيها سعة عقل وسُموّ اخلاق وثبات عزم قلما نراها في هذه الأيام.

على أن الفائدة من قراءة الكتاب المقدس قراءة عاجلة بدون ترو ضئيلة جدا. قد يقرأ المرء الكتاب كله، من التكوين الى الرؤيا، ولا يرى شيئا من جماله ولا يسبر شبرا من غوره. أما إذا أطال التأمل في آية واحدة فقط الى أن يدرك معناها ويفهم مغزاها في تدبير الخلاص، فإنه يستفيد أكثر بكثير مما لو تلا فصولا عديدة دون هدف ولا منفعة. إذن خذ كتابك معك واقرأ فيه كلما وجدت لذلك فرصة سانحة، واستذكر آياته التي تقرأها لأنه من الممكن أن تتأمل في الآيات وأنت ماشٍ في الشارع فتثبتها في ذاكرتك.

إننا لن نصير ذوي حكمة إلا إذا أعرنا الكتاب المقدس التفاتا جديا ودرسناه دراسة مصحوبة بالصلاة. لأنه، وإن كان في الكتاب فصول لا يخطئ أحد في فهمها، إلا أن فيه أيضا فصولا ذات معنى عميق بعيد الغور، لا يسهل فهمها لأول وهلة، فيجب إذن مقارنه الآيات بالآيات مع توخي الدقة في البحث والتعمق في التفكير والصلاة. وبذلك تعود علينا دراسة الكتاب المقدس بالخير العميم والنفع الجزيل. فكما يبحث المعدّن عن الأحجار الثمينة في جوف الأرض، هكذا يجب أن ننقب في كلمة الله عن كنز ثمين حتى نجد فيها حقائق ذات قيمة عُظمى مما قد أخفي عن عيون كثيرين من الذين يقرأون الكتاب قراءة سريعة. فإن كلمة الوحي إذا وعيناها في قلوبنا وتدبرناها، كانت بمثابة جداول تتدفق من ينبوع الحياة.

حذار من الإقدام على دراسة الكتاب دون أن تستعين بالصلاة. فقبل أن تتصفحه، يجب أن تطلب الاستنارة من الروح القدس. ومتى طلبت فلا بد من أن تنال. إن يسوع حين رأى نثنائيل مقبلا إليه قال عنه "هوذا إسرائيلي حقا لا غش فيه. فقال له نثنائيل، من أين تعرفني؟ أجاب يسوع وقال له قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك" يوحنا ١: ٤٧و٤٨. فيسوع الذي رأى نثنائيل وهو يصلي تحت التينة يراك أيضا وأنت تصلي في مخدعك إن كنت تتلمس منه النور لمعرفة الحق، بل أن ملائكة النور أنفسهم سيرافقونك ويأخذون بيدك إن كنت تطلب الهداية والإرشاد بروح الاتضاع والانقياد.

إن عمل الروح القدس هو أن يعظم المخلص ويمجده، إذ إن الروح هو الذي يقدم لنا المسيح وبره وخلاصه كما قال يسوع عنه "ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم" يوحنا ١٦: ١٤. فإنما روح الحق دون سواه هو المعلم المؤثر الفعال الذي يستطيع أن يعلمنا الحق الإلهي.

ما أعظم تقدير الله لجنسنا البشري، إذ أعطانا ابنه ليبذل حياته لأجلنا. ووهبنا الروح القدس ليكون معلمنا ومرشدنا الدائم.

الفصل الحادي عشر

إمتياز الصلاة

نعم، يكلمنا الله في الطبيعة والوحي، ويناجينا بأعمال العناية وبتأثير الروح القدس فينا. لكن هذا كله لا يكفي، بل، لكي تكون لنا حياة وقوة روحيتان، يلزم أن نفيض له بمكنونات صدورنا، ونحادثه عن جميع أمورنا، فقد تنجذب إليه عواطفنا، وقد نتأمل أعماله ومراحمه وبركاته دون أن نكون قد تحدثنا إليه بالمعنى الحقيقي. ولكي يكون بيننا وبين الله تحادث يجب أن نخبره، في صلاتنا إليه، بما في حياتنا من واقعيات.

إن الصلاة هي فتح القلب لله كما لو كنا نكلم صديقا حميما، وليست هي ضرورية لنعليم الله بما نحن عليه، ولكنها ضرورية لأنها تمكننا نحن من قبول نعمته، إذ إنها لا تنزل الله إلينا ولكنها ترفعنا اليه تعالى.

علّمَ يسوع تلاميذه كيف يصلون وأرشدهم الى أن يعرضوا حاجاتهم اليومية لله، ويلقوا كل همهم عليه. وأكد لهم أن طلبتهم تستجاب، وما قاله لهم قاله لنا نحن أيضا.

ويسوع نفسه، وهو حال بين الناس، كان يصلي كثيرا. فإذ اتحد بنا، وصارت حاجاتنا حاجاته وضعفاتنا ضعفاته، تضرع الى الآب لينال منه قوة جديدة وليخرج متشددا لمواجهة واجبات اليوم وتجاربه. وهو في كل شيء مثالنا، كما وأنه أخ لنا في

ضيقاتنا، "مجرب في كل شيء مثلنا" عبرانيين ٤: ١٥، ولكنه مع ذلك هو القدوس الذي نفرت طبيعته من الإثم، وقاسى صراعا وعذابا أليما وهو في عالم الخطية، فأصبحت الصلاة ضرورية له في طبيعته البشرية، بل لذة وامتيازا. ووجد في التحدث الى الآب فرحا وعزاء. فإذا كان مخلص الناس، ابن الله الحبيب، قد شعر بحاجة الى الصلاة، فكم هو أجدر بنا نحن الضعفاء والأثمة المائتين أن نشعر بحاجتنا الى الصلاة الحارة المستديمة.

يترقب أبونا السماوي الفرص ليغمرنا بكامل بركاته. إنه لمن ميزاتنا أن نشرب جرعات مشبعة من ينبوع محبته، فما أغرب قلة صلواتنا إليه. إن الله لمستعد وراض أن يسمع الصلاة الخالصة الصاعدة من أوضع أولاده، ومع ذلك نرى بيننا ترددا ظاهرا في إعلامه حاجاتنا. وماذا يظن الملائكة في أناس مساكين ضعفاء معرضين لتجارب قوية، وهم على رغم ذلك لا يصلون إلا قليلا، ولا يؤمنون إلا يسيرا! وأما الله فإنه مشتاق إليهم، راغب في أن يهبهم أكثر جدا مما يتصورون. وها الملائكة يسرون بالسجود أمام الله ويحبون القرب منه تعالى ويتلذذون بالتحادث إليه، ولكن أولاد آدم، وهم في مسيس الحاجة الى عونه تراهم مكتفين بأن يسلكوا بدون نور الروح القدس وبدون مرافقته لهم وحضوره معهم.

يرخي الشرير سدول ظلامه الى الذين يسهون عن الصلاة، ويغريهم على الخطية إذ يهمس في قلوبهم بوسوسته، ذلك لأنهم لا يستغلون امتيازاتهم التي أنعم بها الله عليهم في الصلاة.

ولماذا يحجم بنو الله عن الصلاة وهي المفتاح في يد الإيمان به يفتحون خزائن السماء المُذّخَر فيها وفور غنى القادر على كل شيء؟ وإن لم ندأب في الصلاة ونجاهد في السهر نعَرّض أنفسنا لخطر الإهمال فالحيدان عن الصراط المستقيم، لأن العدو يَسعى سعيا متواصلا فيضع العراقيل في الطريق المؤدي الى عرش النعمة. وهو يمنعنا من الحصول على النعمة والقوة لمقاومة التجارب بواسطة الإيمان والصلاة.

أجل يشترط الله شروطا معينة لا بد من إيفائها ليستمع لدعائنا ويستجيب لطلباتنا. أولها أن نشعر بحاجتنا الى معونته، فقد وعد قائلا: "أسكب ماء على العطشان وسيولا على اليابسة" إشعياء ٤٤: ٣. فالذي يجوع ويعطش الى البر ويشتاق الى الله، لا بد من إشباعه، ولكن يجب أن يكون قلبه مفتوحا لتأثير الروح القدس وإلا فالبركة لا تأتيه.

إن أقوى حججنا لنيل البركات هي حاجتنا إليها عينًا، فإنها تشفع فينا لأفصح العبارات. إلا أنه يجب علينا أن نطلب من الله أن يعمل لأجلنا، كما قال "اطلبوا تجدوا" متى ٧: ٧، و "الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضا معه كل شيء" رومية ٨: ٣٢

إن راعَيْنا إثما في قلوبنا، أو تمسكنا بخطية واحدة معلومة لدينا، لا يستمع لنا الرب، ولكنه في كل وقت يقبل صلاة النفس التائبة المنسحقة. عندما نصلح كل الأخطاء المعلومة، يحق لنا أن نؤمن بأن الرب قد سمع وأنه ليستجيب صلواتنا. لا يمكننا

أن نرضـــي اللـــه باســتحقاقاتنا إذ لا يمكننـــا أن نخلــص إلا باستحقاقات المسيح وحدها. فدمه الثمين هو الذي يطهرنا. ومع ذلك فعلينا واجب نقوم بـه لإيفـاء شـروط القبـول. عـامل آخـر للصلاة المنتصـرة هو الإيمان "لأنه يجب أن الذي يأتي الى اللـه يؤمن بأنه موجود وأنه يجازي الذين يطلبونـه" عبرانيين ١١: ٦. وقد قال المسيح لتلاميذه "كل مـا تطلبونـه حينمـا تصلـون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم" مرقس ١١: ٢٤. فهل نعتمـد علـى كلمته؟ والتأكيد هنا واسع وغير محـدود، لأنـه أميـن هـو الـذي وعـد. وحتـى إن كنـا لا نحصـل علـى الأشـياء التـي طلبناهـا بالذات، وفي الوقت الذي تقدمنا بطلبنا إليه، فمع ذلك، علينـا أن نؤمن بأن الرب يسمع وسوف يستجيب لصلواتنـا. لأننـا ونحـن خطاة قصار البصر، كثيرا ما نطلب ما هو لضررنا، وأما أبونا السماوي فحبا لنا ورفقا بنا يستجيب صلواتنا بأن يعطينا ما هـو لخيرنـا الأكبر ومـا كنـا لنطلبـه لأنفسنا لـو اسـتنيرت أذهاننـا وعرفنا الأمور على حقيقتها. فعندما يبدو لنـا أن صلواتنـا غير مستجابه يجب أن نتمسك بالوعد، لأنه لا بد من أن يـأتي وقـت الاستجابه وننال البركة التي نحن في أشد الحاجـة إليهـا. وأمـا الادعاء بأن صلواتنا تسـتجاب بالكيفيـة التـي نعيّنهـا نحـن وفـي الشيء نفسه الذي نطلبه فهو تطفل، بل تصلف، لأن اللـه أحكـم من أن يخطئ وأصلح من أن يمنع خيرا عن السالكين بالكمـال. فلا تخش الاتكال عليه حتى إذا كنت لا ترى الجواب فورا عما طلبت، بل ثق بالوعد الأكيد القائل "اسألوا تعطوا".

أمـا إذا أخذنـا بمشـورة شـكوكنا، وسـرنا علـى رأي مخاوفنـا، وأردنا أن نحل كل معضلة قبل أن نؤمـن باللـه، فـلا نـزداد إلا

حيرة وارتباكا. ولكن إذا أتينا إليه شاعرين بنقصنا وقصر باعنا، وبإيمان وديع وثقة ثابتة أعلمناه بحاجتنا، وهو العليم بما في السماء وعلى الأرض ويرى كل ما في الخليقة ويُسَيِّرُ كل شيء بكلمته وبحسب إرادته، فهو القادر أن يسمع دعاءنا وينير قلوبنا. وهكذا بصلواتنا المخلصة نصير على اتصال بفكر القادر على كل شيء. وقد لا نرى دليلا قاطعا على أن المخلص يحنو علينا ويحبونا برحمته ومحبته، وقد لا نحس بلمسة يده على جباهنا في رفق وحنان، ومع ذلك هذه هي الحقيقة الراهنة.

وإذ نأتي الى الله لنطلب منه رحمة وغفرانا يجب أن يملأ قلوبنا روح التسامح والمحبة للآخرين. وكيف يمكننا أن نصلي قائلين "واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا" متى ٦: ١٢ ومع ذلك ننغمس في روح الانتقاد وعدم الاغضاء؟ فإنه على قَدَرِ ما نتوقع أن يسمع لنا ويسامحنا، على هذا القدر عينه يجب أن نصفح نحن للآخرين ونسامحهم.

جعل الله المثابرة على الصلاة شرطا لاستجابتها، فقد أمرنا أن نصلي بلا انقطاع لكي نتقوى في الإيمان ونتقدم في الاختبار. فأمر أن نواظب "على الصلاة"، وأن نسهر "فيها بالشكر"، ونتعقل ونصحو "للصلوات"، و "في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتعلم طلباتكم لدى الله"، و "أنتم أيها الأحباء... مصلين في الروح القدس... احفظوا أنفسكم في محبة الله"؛ رومية ١٢:١٢؛ كولوسي ٤: ٢؛ ١بطرس ٤: ٧؛ فيلبي ٤: ٦؛ يهوذا ٢٠و٢١. في المواظبة على الصلاة تتحد النفس بالله

اتحادا لا تنفصم عراه، فتجري حياة من الله إلينا، وترجع إليه تعالى لمجد اسمه في طهارتنا وقداستنا.

إن المثابرة على الصلاة لضرورة حيوية، فيجب ألا يعوقك عنها شيء. ابذل الجهد لتكون نفسك على اتصال دائم بيسوع، واغتنم كل فرصة تسنح للذهاب الى حيث تجري العادة أن تكون صلاة. لأن الذي يطلب محادثة الله تراه في اجتماع الصلاة قائما بواجبه، مهتما به، مُجِدًّا في الحصول على كل بركة وفائدة، ملتمسا أن يكون حيث تضيء عليه الأشعة السماوية.

يجب أن نصلي في دائرة العائلة، ولكن الصلاة الانفرادية هي أكثر الصلوات إحياءً للنفس وقوة لها. فإذا ما أُهملت تذبل النفس ولا تستطيع أن تزهو وتثمر. ولا تغني الصلاة العائلية أو الصلاة العمومية في المجتمع عن الصلاة الانفرادية في المخدع، إذ إننا نحتاج أن نكشف نفوسنا أمام الله على انفراد وأن نصعد ابتهالاتنا الى أذني رب الجنود حيث لا تسمعها أذن بشرية. والنفس في المخدع تكون بعيدة عن كل تأثير خارجي وفي معزل عن كل ما يثير الحواس أو يهَيِّجُ العواطف، فتتلمس الله بهدوء وحرارة عظيمين. ما أحلى البركات المنبثقة حينئذ من الذي يرى في الخفاء ويسمع كل صلاة تصعد من صميم الفؤاد، وهكذا، بالإيمان البسيط الهادئ، تتمسك النفس بقوة الله وتجمع لذاتها أشعة نوره لتسندها في محاربتها الشيطان الرجيم. إن الله لبرجها الحصين.

فصلّ إذا في مخدعك، وليكن قلبك مرفوعا الى الله وأنت تباشر أعمالك اليومية، لأنه هكذا سار أخنوخ مع الله. ومثل هذه الصلوات الصامتة تصعد أمام عرش النعمة كالبخور العطر، ولن يغلب الشيطان أبدا الإنسان الذي يستند على الله هكذا في قلبه.

وليس من مكان أو زمان لا يليق رفع الطلبة الى الله فيهما. وليس من عائق يستطيع أن يمنعنا من التوجه إليه في قلوبنا في روح الصلاة الحارة طالبين في شوارع المدينة المزدحمة أو في وسط صفقة تجارية، الإرشاد الإلهي، كما فعل نحميا وهو ماثل في حضرة الملك أرتحشستا. لأننا حيثما كنا فنحن مع الله كما في مخدع، وقلوبنا مفتوحة تدعو يسوع أن يمكث فيها ضيفا كريما محبوبا.

ولئن كنا محاطين بجو فاسد مميت، لا يتحتم علينا أن نستنشق هواءه المفسد. في إمكاننا أن نحيا في جو السماء النقي المنعش بأن نوصد كل باب في وجه التصورات النجسة والتفكرات الدنسة، ونرفع قلوبنا الى الله في صلاة خالصة، فالذي يرفع نفسه الى الله لقبول عونه وبركته يسير في جو أقدس من الذي يحيط بالأرض، ويتصل بالسماء اتصالا وثيقا دائما.

من حاجاتنا الماسة أن نرى يسوع رؤية أجلى وأوضح وأن ندرك قيمة الحقائق الأبدية إدراكا أكمل. يجب أن تملأ زينة القداسة حياة أولاد الله، ولا يتم لهم هذا إلا إذا طلبوا أن يعلن لهم الله الأمور السماوية إعلانا جليا.

فلتنجذب النفس الى فوق ليمنحهـا اللـه أن تتنسم نسـيم السـماء. لأنه في إمكاننا أن نعيش قريبا من الله حتى تتجه أفكارنـا إليـه إذا داهمتنا تجربة كما تتجه زهرة الأقحوان نحو الشـمس علـى الدوام.

أعرض حاجاتك وأفراحك وأحزانـك وهمومـك ومخـاوفك أمـام الله بصورة دائمة، لإنه لا يقلق من كثرتها ولا يمل من عددها. فالذي يحصي شعور رؤوسـنا، ألا يهتم بحاجـات أولاده؟ بلـى. "الـرب كثير الرحمـة ورؤوف" يعقـوب ٥: ١١، وقلبـه المحـب يتأثر من أحزاننا حتى من ذكرها له. فاذهب إليه بكل ما يحـير فكرك واثقـا أن الـذي يحمـل العـالمين بكلمتـه ويُسَيِّرُ الكواكـب حسب إرادته لا يعظم عليه أمر، ولا يستصغر أمرا ما حتى لا يعيره التفاتا. وليس في اختباراتنا فصل لا يستطيع أن يقرأه ولا فـي حياتنـا معضلـة لا يعـرف حلهـا. ولا تصيـب أحـد أولاده الأصـاغر نكبة، ولا يبهجهـم فـرح، ولا يسـاورهم خـوف، ولا تصعد صلاة خالصة من شفاههم، إلا ويعلم بها أبونـا السـماوي ويهتم لهم بها. فهو "يشفي المنكسـرى القلـوب ويجـبر كسـرهم" مزمور ١٤٧: ٣، ويعامل كل نفس معاملة فارقـة كاملـة كأنهـا هي الوحيدة التي بذل ابنه لأجلها.

قال يسوع "تطلبون باسمي، ولست أقول لكم إني أنا أسأل الآب مـن أجلكم. لأن الآب نفسـه يحبكـم" و "أنـا اخـترتكم... لكـي يعطيكم الآب كل ما طلبتم باسمي"، يوحنـا ١٦: ٢٦و٢٧؛ ١٥: ١٦. ولكن الطلب باسم يسوع لا يعني مجرد ذكر اسمه العزيز

في مستهل الصلاة أو في ختامها، بل يعني أن يكون فينا فكر المسيح وروحه وأن نكون مؤمنين بمواعيده، متكلين على نعمته وممارسين أعماله.

وإذ يطلب الله منا أن نعكف على التعبد والصلاة، فهذا لا يعني أن نعتزل هذا العالم ونلجأ الى الأديرة والصوامع لكن نحيا حياة الترهب والتنسك. بل يجب أن نكون مقتدين بيسوع الذي كان يقضي يومه بين الاختلاء في الجبل وخدمة الجمهور. فمن يحاول أن يقضي الوقت كله في الصلاة لا يلبث أن يهجرها أو يأتيها كروتين شكلي، ذلك أن الإنسان عندما ينتزع نفسه من حياة المجتمع ويتناءى عن الواجب المسيحي ويتهرب من حمل الصليب، وعندما يتوقف عن العمل بإخلاص من أجل السيد الذي عمل بإخلاص من أجله، تفتر همته وتصير صلاته بدون هدف وبدون باعث وتصبح طلباته مقتصرة على ذاتيته ومحصورة في دائرة أنانيته. فلا يصلي لأجل حاجات البشر عامة او لأجل تقدم ملكوت الله أو للحصول على قوة لكي يخدم ربه خدمة ناجعة مقبولة.

إننا إن أهملنا واجب المعاشرة وأغفلنا تشجيع وتقوية بعضنا البعض على المضي في خدمة الله، نخسر خسارة أية خسارة. فتفقد الحقائق الإلهية قوتها على إحيائنا، وتقل أهميتها في نظرنا، فلا تؤثر بعد في أفكارنا لإنارتها وتقديسها، فننحط انحطاطا روحيا متواليا. وكمسحيين، سنخسر الكثير نتيجة عدم إظهار تعاطفنا واحدنا مع الآخر. فالذي يعيش بمعزل عن الناس وينطوي على نفسه لا يملأ المقام المعين له من الله.

فالتهذيب اللائق للمبادئ الاجتماعية في طبيعتنا، يؤدي بنا الى التعاطف مع الآخرين، وتصبح وسيلة لتطويرنا وتقويتنا في خدمة الله.

لو كان المسيحيون يجتمعون للتحادث عن محبة الله وعن حقائق الفداء الثمين لشرحوا بذلك خواطرهم وأنعشوا بعضهم بعضا. لأنه في إمكاننا أن نتقدم كل يوم في معرفة الله ونختبر اختبارات جديدة في نعمه، وإذ ذاك نرغب في التكلم عن محبته وتلتهب قلوبنا فينا ونتشجع. فلو زدنا في التفكير والتحادث عن يسوع وقللنا من التكلم عن أنفسنا لتمتعنا بدوام حضوره معنا وحلوله بيننا.

لو كان تفكيرنا في الله يعادل ما نراه من الدلائل على عنايته بنا لكنا نفكر فيه على الدوام نسر بالتكلم عنه ونلهج بحمده. إننا نتحادث عن الأمور الزمنية لأننا نهتم لها، ونذكر أحباءنا لأننا نحبهم ونرتبط بهم في أفراحنا وأتراحنا. بيد أن أسباب محبتنا لله كثيرة لا تقاس مقارنة مع أسباب محبتنا لإخوتنا في البشرية. فيجب أن يكون غريزيا فينا أن نجعله الأول في أفكارنا لنذكر حسناته ونخبر بقوته. ولم يكن القصد من هباته الغنية التي يجزلها لنا أن نستغرق فيها ونغرم بحبها حتى لا يكون لنا وقت للتفكير في واهبها، بل كان القصد منها أن تذكرنا دوما به تعالى وتربطنا به برباط المحبة والشكران الشديدين. ولكننا نسكن في الحضيض، فلنرفعن أعيننا الى باب المقدس السماوي المفتوح حيث نرى مجد الله المضيء من

وجه يسوع المسيح القادر "أن يخلص أيضا الى التمام الذين يتقدمون به الى الله" عبرانيين ٧: ٢٥.

يلزم أن نكثر الحمد "على رحمته وعجائبه لبني آدم" مزمور ١٠٧: ٨، وألا تقتصر عبادتنا على الطلب والأخذ. فلا نفكر دائما في حاجاتنا ونغض الطرف عما بين أيدينا من النعم والبركات، لأننا، وإن كنا لا نصلي أكثر مما يلزم وإنما نبخل في تقديم الشكر اللائق، نرى مراحم الرب التي تغمرنا على الدوام، وما أقل شكرنا وما أشد بخلنا في الحمد له على كل ما صنع لأجلنا.
قال الله لإسرائيل قديما إذ اجتمعوا لخدمته "تأكلون هناك أمام الرب إلهكم وتفرحون بكل ما تمتد إليه أيديكم، أنتم وبيوتكم، كما باركم الرب إلهكم" تثنية ١٢: ٧. فالذي نعمله لمجد الله إنما يجب أن نعمله بفرح وبترانيم الحمد والشكر، لا بالغم والاكتئاب.

إن إلهنا لآب رؤوف ورحيم فيجب ألا نحسب الخدمة له عملا شاقا مكدرا. ينبغي أن نعبد الله بسرور ونشارك في عمله. وإنه لا يسره أن يعمل أولاده من أجله وكأنه سيد صارم مسخر وهو الذي وفر لهم خلاصا هذا مقداره. إنه أفضل صديق لنا. وإذ يعبدونه يريد الحضور معهم ليباركهم ويعزيهم ويملأ قلوبهم فرحا ومحبة. يتوق الله أن يشعر أولاده بالراحة في خدمته ويجدوا لذة ومسرة بدلا من مشقة في عمله. ويرغب في أن الذين يعبدونه تمتلأ عقولهم بأفكار ثمينة عن رعايته ومحبته، وبهذا ينالوا التشجيع للقيام بالواجبات اليومية،

ويحصلوا على نعمة تمكنهم من الاستقامة والأمانة في جميع معاملاتهم.

فلنجتمع حول الصليب ولنجعل المسيح وإياه مصلوبا مدار تأملاتنا وموضوع محادثاتنا ومبعث فرحنا وابتهاجنا. ولنتذكر كل بركة تأتينا من الله حتى إذا ما تحققنا عظمة محبته نثق به ونودع بين يديه المُسَمَّرَتين كل أمورنا عن رضى مطمئنين.

إنه في استطاعة النفس أن تسمو وتعلو الى السماء على أجنحة الحمد والشكر. فإذ نعبر عن شكرنا له بصوت الترنم تصير عبادتنا كعبادة الجيوش السماوية التي تقدم لله الحمد بقيثارات ونغمات مفرحة، ولقد قال تعالى إن "ذابح الحمد يمجدني" مزمور ٥٠: ٢٣، فَهَلُمَّ نتقدم الى خالقنا ونهتف له بصوت "الحمد وصوت الترنم" إشعياء ٥١: ٣.

٠الفصل الثاني عشر

الشك

كثيرون تُضايقهم الأفكار وتُقلقهم الشكوك، ولا سيما حديثو الإيمان، ذلك لأنهم يُصادفون في الكتب المقدسة آيات لا يستطيعون تفسيرها ولا فهمها، يستخدمها الشيطان لإثارة الشك في كونها مُوحى بها من الله. فتراهم يتساءلون متحيرين، "كيف يُمكننا أن نعرف السبيل السوي؟ فإذا كان الكتاب المقدس كلمة الله حقيقة، كيف يتسنى لنا أن نتحرر من هذه الشكوك والارتباكات؟"

إن الله لم يطلب منا أن نؤمن دون أن يُقدم لنا بيّنات كافية نبني عليها إيماننا. فالشواهد التي تدلنا على وجود الله، وتُظهر لنا صفاته وسجاياه، وتُثبت صدق أقواله، مُتوافرة لدينا، وهي مُستساغة للعقل أيضا. ومع ذلك فإنه تعالى لم يُزل إمكانية الشك، إذ يجب أن يقوم إيماننا على البيان، لا على العيان. ومن ثم يكون لنا أن نختار بين أن نؤمن أو نرتاب. فمن أراد أن يرتاب يجد ما يتعلل به، ومن أراد أن يؤمن فلا تعوزه البينة ولا ينقصه الدليل.

بيد أنه يستحيل على عقولنا أن تُدرك كنه الله، أو أن تستوعب أعماله، لأنه تعالى مُحاط بأسرار تُحير الألباب الثاقبة. فإن أذكى الأذهان المثقفة تعجز عن سبر غورها، بل يقف العلماء منها موقف من قال "أإلى عُمق الله تتصل أم إلى نهاية القدير

تنتهي، هو أعلى من السموات فماذا عساك أن تفعل. أعمق من الهاوية فماذا تدري" أيوب ١١: ٧و٨.

وكتب الرسول بولس في ذلك هاتفا بتعجب" يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء" رومية ١١: ٣٣. لكن، ولئن كان "السحاب والضباب حوله (فإن) العدل والحق قاعدة كرسيه" مزمور ٩٧: ٢. وفي استطاعتنا أن نفهم معاملته للناس وأن نعرف بواعثه، فنرى فيها محبة أبدية مُتحدة بقوة فائقة الحد. ونستطيع ايضا أن ندرك من مقاصده ما هو لمنفعتنا. وأما فيما عدا ذلك فإننا نثق بمحبته ونتكل على قوته.

كذلك كلمة الله أيضا، فيها كما في مُنزلها، أسرار لا يمكن استقصاؤها. وأهم مواضيعها، كدخول الخطية الى العالم، وتجسد المسيح، والتجديد والقيامة، وما الى ذلك من مكنونات الكتب المقدسة، كلها أعماق لا يصل الإنسان الى سبر غورها. ولكن عدم استطاعتنا أن ندرك أعمال العناية الإلهية ليس مما يدعو الى عدم الإيمان بها. فنحن مُحاطون في عالم الطبيعة، بأسرار لا يُمكن الوصول الى فهمها. فلم يستطع فطاحل العلماء والفلاسفة أن يفهموا كنه الحياة الظاهرة في أبسط مخلوقات الله. اننا حيثما نلتفت نجد أسرارا لا ندركها. فهل نستغرب اذاً وُجود أسرار في العالم الروحي يعسر علينا فهمها؟ والصعوبة ليست في الحقائق نفسها بل في ضعف العقل البشري وقصره. ومع ذلك فقد أعطانا الله في الكتب المقدسة بيانات كافية لاثبات

الحقيقة أنهـا مـن مصـدر الهـي، فـلا نشـك فيهـا لمُجـرد أننـا لا نستطيع فهم كل أسرار عنايته الالهية.

نعم، فـي الكتـب المقدسـة، كمـا قـال الرسـول بطـرس، "أشـياء عسـرة الفهـم يُحرفهـا غـير العلمـاء وغـير الثـابتين ... لهـلاك أنفسهم" ٢ بطـرس ٣: ١٦. وقد اتخـذ الملحدون هـذه الأشـياء العسرة الفهم حُجة ضد الكتاب المقدس. بيد أن النتيجة يجب أن تكون على النقيض من ذلك، لأن هـذه الصعوبـات تكـون حجـة قوية على وحيه الإلهي. فإذا خلت الكتب المقدسة، في إخبارهـا إيانا عن أمور الله، من كل ما يعسر علينا فهمـه. ولـو أدركـت العقـول البشـرية الضعيفـة مـا جـاء فيهـا عـن عظمتـه وجلالـه، لأعتبر هذا الخلو بُرهانا على أنها لا تحمل سـمة اللـه التـي لا تُخطأ عن سلطانه الإلهي. أما سمو مواضيعها وجلالها فيُولدان في القلوب إيمانا بها وثقة بأنها كلمة الله المُنزلة.

يعرض الكتاب المقدس الحق ببساطة ومُلاءمة تامة مع حاجات البشـر وأشـواق قلوبهم بطريقـة أذهلـت ذوي العقـول المثقفـة واستهوتهم، وفي الوقت ذاته يُمكّن أبسط الناس وغير المتعلمين منهم من تمييز طريـق الخـلاص. غـير أن الحقـائق التـي يُعـبر عنها الكتاب المقدس ببسـاطة مُتناهيـة تتنـاول مواضيـع سـامية، بعيدة الغور، فائقة الإدراك البشري، حتـى أننـا نؤمـن بهـا فقـط لثقتنا بأن الله تعـالى هـو مُعلنهـا. فـنرى تدبـير الفـداء مُوضحـا بحيث تعرف كل نفس الخطـوات التـي عليهـا أن تخطوهـا فـي التوبة الى الله والإيمان بربنا يسوع المسيح لكي تنال الخـلاص بالطريقة التي عينها الله. ومع ذلك يحوي هذا التدبير الواضح

أسرارا يتستر فيها مجد الله، تُذهل عقول دارسيها وتُلهم المخلصين في طلب الحق وقارا وإيمانا. وإذا أمعن القارىء النظر فيها ازداد اقتناعا ويقينا بأنها كلمات الله الحي. فينحني المنطق البشري أمام جلال الوحي الإلهي. إن اعترافنا بأننا لا نستطيع أن نفهم حقائق الكتاب المقدس فهما كاملا، ما هو إلا إقرار بأن العقل المحدود قاصر على الإلمام بغير المحدود وأن الإنسان بمعرفته الجزئية لا يستطيع أن يستوعب أغراض وأهداف الله كلي القدرة.

يرفض الشكّاك والملحدون كلمة الله لأنهم يعجزون عن سبر غور أسرارها وليس جميع الذين يدّعون الإيمان في مأمن من هذا الخطر المُحدق. فها الرسول بولس يُحذرنا قائلا " انظروا أيها الاخوة أن لا يكون في أحدكم قلب شرير بعدم الإيمان في الارتداد عن الله الحي" عبرانيين ٣: ١٢. إنه لمن الصواب أن ندرس تعاليم الكتب المُقدسة بتدقيق وإمعان، وأن نفحص كل شيء "حتى أعماق الله" ١ كورنثوس ٢: ١٠ كما قد أعلنها الله، لأن "السرائر للرب الهنا والمعلنات لنا" تثنية ٢٩ :٢٩. ولكن الشيطان يعمل على تضليل قوى العقل، فيُدخل في دارس الكتاب المقدس شيئا من العجب بذاته حتى أنه يشعر بتضجر وفشل إن لم يستطع أن يفهم كل الحق المدون في هذا الكتاب. كما أنه يشعر أيضا بالإذلال والمهانة في الاعتراف بأنه لا يفهم كلمات الوحي. ولا يصبر ريثما يُعلنها له الروح القدس حين يشاء. وإذ يعتد بحكمته البشرية حاسبا أنها كافية لإدراك معاني الكتب المقدسة، ثم يُمنى بالفشل في بلوغ الغاية المنشودة فما يلبث أن يكذبها ويرفض سلطانها. وهذه النظريات والمعتقدات

التي تولد الشك في العقول وتربكها والتي يزعمون أنها مبنية على كلمة الله، هي بالحقيقة لا تمت اليها بصلة، بل تناقضها تناقضا بينا، إذ هي من استنباط الناس وتحريفهم، وكلمة الله بريئة منها براءة تامة.

لو كان في مقدور المخلوق أن يُحيط علما بالخالق ويُدرك جميع أعماله إدراكا كاملا لبلغ بذلك حدا في التقدم والمعرفة حتى لم يبق له مجالا للنمو في العلم والازدياد في كمال الصفات. فلا تكون بعدِ أفضلية لله أو سيادة. والإنسان، إذ قد بلغ الحد في العلم والكمال، يتوقف عن التقدم. فلنشكرن الله أن الأمر بخلاف ذلك، لأن الله، "المُذخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم" كولوسي ٢: ٣، لا يُستقصى ولا يُحد، وسيقضي الإنسان الأبدية كلها في البحث والدرس دون أن يستنفذ كنوز حكمة الله وجوده وقوته.

يُريد الله منا أن نتقدم، حتى في هذه الحياة، تقدما مطردا في فهم حقائق كلمته. ولا سبيل الى ذلك إلا بإنارة الروح القدس الذي أوحى بها، لأن "أمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله" و "الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله" ١ كورنثوس ٢: ١١و ١٠. وقد وعد المخلص تلاميذه قائلا "متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم الى جميع الحق ... لأنه يأخذ مما لي ويُخبركم" يوحنا ١٦: ١٣ و ١٤.

يُريد الله أن يستعمل الإنسان قواه العقلية، وليس ما يزيد هذه القوى قوة واقتدارا ويرقي الذهن ترقية عالية مثل درس كلمة

الله. على أنه يجب علينا أن نحترس من تأليه العقل، لأنه خاضع لضعفات البشرية وأسقامها. وإن كنا نريد ألا تلتبس علينا أوضح الحقائق الكتابية، يجب أن ندرسها ببساطة الولد وإيمانه مُظهرين رغبتنا في التعلم وملتمسين معونة الروح القدس. وإذا شعرنا بقدرة الله وحكمته وعدم استطاعتنا أن ندرك عظمته، يُلهمنا هذا الشعور وداعة واتضاعا، فنفتح الكلمة بوقار مقدس كما لو كُنا نمثُلُ أمام حضرته فعلا. يجب أن يُقدم المرء على درس كلمة الله مُعترفا بوجود سلطة تفوق العقل ومُخضعا القلب لله القيوم.

تُوجد أشياء كثيرة تبدو غامضة ومُعقدة، فهذه سيُوضحها الله ويُبسطها للذين يطلبون فهمها. ولكن بدون إرشاد الروح القدس، سنكون مُعرضين باستمرار لتأويل الأسفار المقدسة أو إساءة فهمها. ولكن الكثيرين يقرأون الكتاب المقدس ولا يجنون منه فائدة، وقد يُصيبهم ضرر بالغ إذ هم يفتحون كلمة الله بدون احترام أو صلاة، فأفكارهم لم تتوجه الى الله ولم تثبت عواطفهم فيه ولم تتسق إرادتهم مع إرادته، فيُخيم الشك على عقولهم ويتقوى فيهم عدم الإيمان فيملك العدو أفكارهم ويُوحي اليهم بتفسيرات مُضلة . والذي لا يطلب أن ينسجم ويتآلف مع الله قولا وفعلا مهما كان عالما مقتدرا، هو عُرضة للخطأ في فهم الكتاب المقدس والضلال في تفسيره، فلا يُعوّل عليه. وأولئك الذين يُفتشون الكتاب المقدس بقصد العثور على تناقضات فيه، إنما تنقصهم البصيرة الروحية، وإذ ينظرون إليه نظرا معوجا يرون في أبسط آياته وأوضحها أسباب الشك وعدم الإيمان.

إن سبب الشك الأساس، مهما تنكر وتستر، هو في الغالب الميل الى محبة الخطية، فلا يُرحب المتكبر المُحب للخطية بمناهي كلمة الله وإرشاداتها. وإذ لا يرغب في الانصياع لتعليمها تجده على استعداد أن يشك في صحتها ويُنكر سلطتها. ولكي نصل الى معرفة الحق يجب أن تكون فينا رغبة صادقة في معرفته وميل قلبي للسلوك بموجبه. وكل الذين يدرسون الكتب المقدسة بمثل هذه الروح يجدون فيها البراهين القاطعة على أنها كلمة الله حقا يكتسبون من معرفة حقائقها ما يُحكمهم للخلاص.

قال يسوع "إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم" يوحنا ٧: ١٧. فعوضا عن التساؤل والتماحك في ما لا تفهمه، احرص على أن تنتبه الى النور الذي قد حصلت عليه فتأخذ نورا أعظم. واجتهد، بنعمة المسيح، أن تقوم بكل واجب قد صار واضحا أمامك فتنال قوة تُقدرك على فهم تلك الواجبات التي تشك فيها الآن، وعلى القيام بها أيضا.

إن في الاختبار لدليلا يدركه الجميع، مُتعلمين كانوا أم أُميين، والله يدعونا الى امتحان صحة أقواله وصدق مواعيده إذ يأمرنا قائلا "ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب" مزمور ٣٤ :٨. فجدير بنا ألا نتكل على ما قاله غيرنا، بل لنذُق نحن انفسنا ونعرف صدق كلماته. "اطلبوا تأخذوا" يوحنا ١٦ :٢٤. لأنه لا بُد أن يُحقق هذه المواعيد التي لم تخب قط ولن تخيب أبدا. وإذ

ندنو من يسوع ونفرح بملء محبته تزول شكوكنا وينقشع ظلامنا في نور حضرته الجميل.

قال الرسول بولس إن الله "أنقذنا من سُلطان الظلمة ونقلنا الى ملكوت ابن محبته" كولوسي ١: ١٣. وكل من قد انتقل من الموت الى الحياة "قد ختم ان الله صادق" يوحنا ٣ :٣٣. فيُمكنه أن يشهد قائلا "احتجت الى العون ووجدته في يسوع الذي سد حاجاتي وأشبع جوع نفسي وجعلني أؤمن الآن أن الكتاب المقدس بالنسبة لي هُو إعلان ليسوع المسيح. وإن سألتني عن إيماني بالمسيح أقول: لأنه مُخلصي الإلهي، أو عن ثقتي بالكتاب المقدس أجبت اني وجدته صوت الله لنفسي" . وهكذا يكون لنا في انفسنا الشهادة أن الكتاب المقدس حق، وأن المسيح ابن الله، وأننا في ايماننا به "لم نتبع خرافات مُصنعة" ٢ بطرس ١ : ١٦ .

حث بطرس الرسول الإخوة على أن ينموا "في النعمة وفي معرفة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح" ٢ بطرس ٣ : ١٨. إنه عندما يكون شعب الله ناميا في النعمة يزداد على الدوام فهما وادراكا لكلمته تعالى. ويكون في استطاعته أن يرى نورا جديدا وجمالا جديدا في حقائقها المقدسة. ولقد صدق هذا القول في تاريخ الكنيسة على مدى العصور، وسيظل صحيحا الى النهاية. كقول الحكيم "أما سبيل الصديقين فكنور مشرق يتزايد وينير الى النهار الكامل" امثال ٤: ١٨

فبالإيمان نستطيع أن نتطلع الى الأبدية مُمسكين بوعد اللـه مـن جهة ما سنكون عليه من النمو العقلي واتحاد مداركنا بـالمدارك الالهية وجعـل كـل قـوة مـن قـوى النفس علـى اتصـال مُباشـر بمصدر النور. حينئذ نستطيع أن نفرح ونتهلل لأن كـل الأمـور التـي تسـبب لنـا حـيرة وارتباكـا بشـأن أعمـال العنايـة سـتكون واضحـة جليـة. والاشياء التـي تبـدو لنـا عسـرة الفهـم سـتكون مُدركة مفهومة. وكل مـا بـدا لعقولنـا مُشوشـا مُضطربـا سـنراه على أتم انسجام وأجمل تنسيق. "فإننا ننظر الآن في مرآة فـي لغز ولكن حينئذ وجها لوجه، الآن أعرف بعـض المعرفـة لكـن حينئذ سأعرف كما عُرفت" ١ كورنثوس ١٣ : ١٢ .

الفرح في الرب

إن أولاد الله لمدعوون ليكونوا سفراء عن المسيح مظهرين للعالم جود الرب ورحمته، فكما أعلن المسيح صفات الآب على حقيقتها، هكذا ينبغي أن نعلن نحن أيضا المسيح على حقيقته لعالم لا يعي حنو محبته وشفقتها. وقد وصف يسوع مهمتنا هذه إذ قال مخاطبا الآب، "كما أرسلتني الى العالم، أرسلتهم أنا الى العالم"، "أنا فيهم وأنت فيَّ ... ليعلم العالم أنك أرسلتني" يوحنا ١٧: ١٨ و ٢٣. ويخبر بها الرسول بولس في قوله عن تلاميذ يسوع "ظاهرين أنكم رسالة المسيح"، "معروفة ومقروءة من جميع الناس" ٢ كورنثوس ٣: ٣ و٢. ففي كل من أولاده يرسل يسوع رسالة الى العالم ويرسل بك، وأنت من أولاده رسالة الى أسرتك، والى قريتك، والى الحي الذي تسكنه لأنه وهو حال في قلبك يريد أن يتحدث بك الى قلوب الذين لا يعرفونه. وقد يكون أنهم من الذين لا يطالعون الكتب المقدسة، فلا يسمعون صوته من صفحاتها، ولا يرون محبته في أعماله، ولكنهم، إن أنت مثّلته أمامهم، قد يفهمون شيئا من رحمته ويُربحون لمحبته وخدمته.

جعل المسيح من الذين يتبعونه منارات تنير بنوره الطريق المؤدي الى السماء لكي يستنير كل من يراهم ويلاحظ صفاتهم ويعرف من هو المسيح وما هي خدمته.

إنْ نحن مثّلنا المسيح تمثيلا صادقا، سنجعل خدمته تبدو على حقيقتها جذابة خلابة. أما المسيحيون الذين تملأ قلوبهم الكآبة والحزن وتنطق ألسنتهم بالتذمرات والشكاوى، فهم يمثلون الله والحياة المسيحية تمثيلا كاذبا إذ يحملون الناس على الظن بأنه تعالى لا يسر بسرور أولاده وسعادتهم. فهم يشهدون على أبيهم السماوي شهادة زور.

يفرح الشيطان عندما ينجح في اقتياد أولاد الله الى اليأس والقنوط، ويبتهج إذ يحملهم على الارتياب من إرادة المولى في خلاصهم وفي قوته على ذلك. كما أنه يرتاح ارتياحا عظيما إذ يراهم يوجسون شرا من تدبيرات العناية الإلهية. إن شغل إبليس الشاغل هو أن يصور الله لعقولنا كأنه تعالى خال من الرأفة ومجرد من الرحمة. وهكذا يعبر الشيطان عن الحق تعبيرا كاذبا ويملأ المخيلات بأفكار عن الله فاسدة. كثيرا ما نتأمل في أباطيل العدو هذه ولا نتأمل في الحق المتعلق بأبينا السماوي. فنهين الله بشكوكنا فيه وتذمراتنا عليه. والشيطان دؤوب في تصوير الحياة الدينية كأنها حياة التشاؤم مليئة بالأتعاب والصعاب. وعندما يظهر المؤمن أمام العالم بمثل هذا المنظر، فإنه بعدم إيمانه يدعم ادعاء الشيطان الكاذب هذا.

كثيرون، وهم يسيرون في طريق الحياة، يطيلون التفكير في غلطاتهم وخيبة آمالهم. فتمتلئ قلوبهم حزنا وكآبة، كما حدث لأخت كتبت إلي وأنا في أوروبا تطلب مني كلمة تشجيع في ضيقها العظيم. وحدث في الليلة التالية لقراءة رسالتها أنني حلمت أني في بستان وصاحب البستان يقودني في طرقاته وأنا

أقطف الزهور وأتلذذ بجمال رائحتها. وإذ بالأخت المُشار اليها وهي تسير الى جانبي تلفت نظري الى العوسج والقريص الذين كانا يعترضان طريقها. فكانت تئن وتتنهد ولم تتبع القائد في الطريق بل سلكت بين الشوك والعوسج وهي تقول، "آه، أليس مما يؤسف له أن هذا البستان الجميل تفسده هذه الأشواك". فأجابها القائد قائلا: "دعي الأشواك وشأنها، وإلا فإنها تجرحك، واقطفي الورد والزنبق والقرنفل".

ألم تجتز في إختباراتك في مراتع هناء؟ ألم يطرب قلبك فرحا بالروح يوما ما؟ وإذا تصفحت سفر حياتك ألا تجد بين صفحاته صفحات ملذة؟ أوليست مواعيد الله كزهور عطرة نابتة على جانبي الطريق يمتلئ قلبك فرحا لجمالها وحلاوتها؟

أما العوسج والأشواك، فهذه إنما تجرحك وتكدرك. وإن حصرت همك في جمعها، ورحت تقدمها للآخرين، أفلا تكون بعملك هذا قد ازدريت بجود الله ومنعت أيضا الذين حولك من السير في طريق الحياة؟

فليس من الحكمة أن نذكر مكدرات حياتنا الماضية، بما فيها من خطايا وإخفاقات، ونتحدث عنها ونحزن عليها الى أن يغمرنا الفشل واليأس. فإن النفس الخائرة العزم يحفها ظلام قاتم لا يتخلله نور الله، بل وتلقي سحابة مظلمة على طريق الآخرين أيضا.

نشكر الله على الصور الجميلة التي يعرضها علينا في كلمته. فلنجمعن توكيدات محبته المباركة، لكي نتأملها باستمرار حيث نرى ابن الله تاركا عرش أبيه ولابسا الطبيعة البشرية لينقذنا من سلطة ابليس. ولنتأمل انتصاره لأجلنا فاتحا لنا أبواب السماء ومعلنا للعين البشرية مسكن حضرته حيث يتجلى المجد الالهي. فنرى الجنس الهالك مرفوعا من وهدة الهلاك التي تردّى فيها بواسطة الخطية، مُعادا اتصاله بالقادر على كل شيء، فائزا في امتحان الإيمان بالفادي، مُكتسيا بر المسيح وجالسا على عرشه. إن هذه هي الصور التي يعرضها علينا ويريد أن نطيل التأمل فيها فنفرح كل حين.

ولكن عندما يبدو علينا الارتياب من محبة الله وعدم الثقة بمواعيده، نهينه ونحزن روحه القدوس. ماذا يكون شعور أم إذا كان أولادها يتذمرون ويتشكون منها باستمرار، كأنها غير معنية بشؤونهم، في حين أن كل جهودها منصرفة الى الاهتمام بهم والعمل على إراحتهم. أوليس مما يكسر قلبها أن ترى أولادها يرتابون من محبتها؟ وأي والد يرضى بأن يعامله بنوه بمثل هذه المعاملة؟ وكيف يعتبر أبونا السماوي شكوكنا في محبته بعد أن بذل وحيده لأجلنا لكي نحيا حياة أبدية، وقد قال الرسول "الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضا معه كل شيء" رومية ٨: ٣٢. ومع ذلك فكم من امرىء يقول، إن لم يكن بلسان مقاله فبلسان حاله، إن الله لا يقصدني أنا شخصيا بهذه المواعيد فربما هو يحب الآخرين ولكنه لا يحبني أنا بالذات.

إن هذا الموقف ليضر بنفسك، لأنك في تعبيرك عما يخامرك من الشكوك تفتح الباب للمجرب، وتقوي في نفسك الميل الى الارتياب، وتُحزن الملائكة القائمين على مساعدتك وحراستك. فإذا جربك العدو لا تسمح لنفسك بأن تتفوه بكلمة شك أو عدم الإيمان. لأنك إذا فتحت الباب لإيحاءات العدو ووسوساته، يملأ صدرك بهواجسه، وفكرك بسؤالات التمرد. وإذا تكلمت بما في خلدك لا يعود كلامك بالضرر عليك فحسب، بل تزرع في أفكار غيرك زرعا ينبت ويأتي بثمر قد لا يبطل مفعوله أبدا. قد تستفيق أنت من التجربة وتنجو من فخ إبليس في حين أن هؤلاء الذين أثرت فيهم بتعبيرك عن شكوكك قد لا يستطيعون الخلاص من الكفر الذي زرعته فيهم بكلامك. فمن المهم جدا أن نجعل كلامنا مقتصرا على ما يهب السامعين حياة روحية وقوة إلهية.

ينصب الملائكة ليسمعوا ما تخبر به العالم عن أبيك السماوي. فليكن حديثك دائما عن الحي في كل حين ليشفع فيك. وإذ تصافح صديقك ليكن الحمد لله على شفتيك وفي قلبك. فإن هذا ادعى الى اكتساب صديقك واجتذاب أفكاره الى المسيح.

لكل الناس محنهم وأحزانهم التي تثقل كاهلهم ولهم تجاربهم التي يصعب عليهم مقاومتها. لا تخبر البشر رفقائك بأتعابك، بل ألقها على الله بالصلاة. وخذها لنفسك قاعدة أنك لا تتفوه أبدا بكلمة من شأنها أن تثني عزم غيرك أو تبُثّ فيهم الشك، بل اعمل ما في وسعك لتخفف عنهم أثقالهم وتقويهم بكلمات الرجاء والثقة المقدسة.

كم من نفس باسلة ترزح تحت وطأة التجربة، وقد أوشكت أن تخور في جهادها ضد نفسها وضد قوات الشر. فلا تثبط مثل هذه النفس في صراعها الشاق، بل شددها بكلمات التشجيع والرجاء التي تدفعها الى المضي في السير. وبذلك ينبعث منك نور المسيح ويضيء على الآخرين، "لأن ليس أحد منا يعيش لذاته" رومية ١٤: ٧. فإنه بتأثيرنا، من حيث لا نشعر، قد يتشجع الآخرون ويتقوون، أو قد يضعفون ويخورون، فيصدون عن الإتيان الى المسيح وقبول الحق.

كثيرون يحملون صورة خاطئة عن حياة وصفات السيد المسيح. فهم يتصورون أن المسيح كان صارما عابسا بعيدا عن كل تبسم وفرح، ولذلك ترى كل اختباراتهم الدينية مصطبغة بهذا التصور المغلوط.

كثيرا ما نسمع الآية "بكى يسوع"، والقول إن الكتاب لا يذكر أنه تبسم. صحيح أن مخلصنا كان "رجل أوجاع ومختبر الحزن" لأنه حمل على قلبه ويلات البشر كلها. ولكن ولئن كانت حياته حياة إنكار الذات والتضحية وخيم عليها سحاب من الآلام والهموم، إلا أن هذا كله لم يسحق روحه فيه، ولم تكن هيئته هيئة الحزين المتضجر بل هيئة الرائق المطمئن. وقلبه كان كينبوع من الحياة يفيض سلاما وفرحا وابتهاجا حيثما حل.

كان مخلصنا ذا رزانة وجد بالغين، ومع ذلك لم يكن متجهما مكتئبا. والذين يقتدون به تمتلئ حياتهم بجدية القصد والشعور

العميق بالمسؤولية الشخصية ويبعدون عن كل طيش ومرح صاخب وملاحظات ساخرة تجاه الآخرين. لأن الديانة المسيحية تمنح سلاما كالنهر لمعتنقيها. فهي لا تطفئ جمرة الفرح ولا تخمد جذوة الابتهاج ولا تغيم على الوجه الوضاح البسام. إن المسيح لم يأت ليُخدم بل ليّخدم. هكذا هم أيضا يقتدون به عندما تملك المحبة في قلوبهم.

إذا تأملنا في ما يأتيه الناس من الأعمال الجائرة القاسية نجد أننا لا نستطيع أن نحبهم كما أحبنا وإياهم المسيح، بيد أننا إذا أكثرنا التفكير في حنو محبته العجيب وشفقته، يفيض روح المسيح منا للناس. والحب للناس واجب واحترامهم لازم مهما رأينا فيهم من الهفوات والنقائص. وإذا ربينا أنفسنا على التواضع وعدم الاعتداد بالذات واللطف والصبر أمام هفوات الناس نستأصل بذلك الأنانية من أنفسنا ونكسبها سعة صدر ورحابة قلب.

قال المرنم، "اتكل على الرب وافعل الخير. اسكن الأرض وارع الأمانة" مزمور ٣٧: ٣. أجل، "اتكل على الرب" لأن لكل يوم أثقاله وهمومه ومحيراته، وحين نجتمع معا ما أكثر استعدادنا لأن نتحدث عن أتعابنا وتجاربنا، فهذا يتوجس شرا من هنا وذاك يتوقع صعابا من هناك، وكلنا نعبر عن ثقل همنا، فكأني بنا وليس لنا مخلص حبيب شفوق وُجِدَ في الضيق عونا شديدا.

ويتطلع البعض الى الهموم التي قد تأتي فيستميلون للخوف منها مع أنهم محاطون يوميا بدلائل المحبة الكثيرة ويتمتعون بهبات العناية الالهية، إلا أنهم يغضون الطرف عن البركات الحاضرة. وهم ينصرفون الى التأمل في أمور غير مستحبة قد تأتي، أو في صعوبة قد أتت، ومع صغرها، أعمت أعينهم عن الأشياء الكثيرة التي تستوجب الشكر العظيم. فهذه الصعوبات التي يجب أن تدفعهم الى الله، مصدر عونهم الوحيد، تفصلهم عنه تعالى لأنها تولّدُ فيهم القلق والتذمر.

هل بالصواب لا نؤمن؟ ولماذا نكون عديمي الشكر وعديمي الثقة؟ إن يسوع لصديقنا والسماء كلها مهتمة بصالحنا، فيجب ألا ندعِ ارتباكات الحياة اليومية وشواغلها تجعلنا قلقي البال ومقطّبي الجبين. لأننا إذا استسلمنا لهذه الحال فلا بد من أن يكون لنا دائما ما ينغصنا ويكدرنا. فينبغي ألا نستسلم للهمّ. فإن الهمَّ يضنينا ويبلينا دون أن يعيننا على احتمال التجارب.

قد ترتبك في تجارتك وقد تعتم الأحوال أمامك وتهددك الخسارة من كل جانب، فلا تيأس بل الق على الرب همك، واحتفظ بهدوئك وانشراحك. صلّ الى الله طالبا منه الحكمة والحذر في إدارة شؤونك لكي تتبصر فيها وتمنع الخسارة والخراب. واعمل ما في وسعك للحصول على نتائج مرضية. فقد وعد يسوع بالمساعدة إن بذلنا نحن جهدنا، ثم، وقد قمت بالواجب وأنت متكل على معينك الأمين، فاقبل النتائج برضى وفرح.
ليست إرادة الرب أن يثقل كاهل شعبه بالهم غير أنه لا يريد أيضا أن يضلنا، فلا يقول لنا "لا تخافوا لأن طريقكم مأمون

وليست أمامكم مخاطر". كلا، بل هو يعلم أن التجارب والأخطار تنتظرنا. لهذا السبب جعلنا على بينة من الأمر وهو لا يعتزم أن يأخذ شعبه من عالم الخطية والشر، بل أن يدلهم على الملجأ الأمين. لقد صلى المسيح من أجل التلاميذ قائلا، "لست أسأل أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير" يوحنا ١٧: ١٥. وخاطبهم قائلا: "في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا، أنا قد غلبت العالم" يوحنا ١٦: ٣٣.

في الموعظة على الجبل علّم المسيح تلاميذه دروسا ثمينة فيما يختص بضرورة الثقة بالله. وكان القصد من هذه الدروس تشجيع أولاد الله على مدى العصور، وقد وصلت إلينا مفعمة بالتعليمات والتعزيات. فقد وجه المسيح أنظار تابعيه الى طيور السماء وهي تنطلق في الجو مغردة أناشيد الحمد والشكران دون أن يشغلها هم أو قلق. وهي مع كونها لا تزرع ولا تحصد، يمدُها الآب السماوي بكل حاجاتها. ثم سأل تلاميذه قائلا، "ألستم أنتم بالحري أفضل منها"؟ متى ٦: ٢٦. فإن رزّاق الإنسان والحيوان هو الذي يفتح يده ويشبع جميع مخلوقاته خيرا. وهو تعالى لا يغفل حتى عصافير السماء إذ يسد حاجاتها، وإن كان لا يضع الطعام في مناقيرها، لكنه يعطيها فتلتقط. فهي تعد أعشاشها وتقوت صغارها وتنطلق في الجو مغردة في عملها، لأن الآب السماوي يقوتها. "ألستم أنتم بالحري أفضل منها"؟ متى ٦: ٢٦. وما قيمة العصافير بالنسبة اليكم وأنتم خلائق الله العاقلة وعُبّاده الروحيون؟ أفلا يمدكم خالقكم وحافظ حياتكم بكل ما تحتاجون اليه إن أنتم توكلتم عليه؟

وجه المسيح أنظار تلاميذه الى زهور البرية النامية بكثرة، الزاهية بجمالها البريء الذي به زينها أبونا السماوي تعبيرا عن محبته للإنسان. فأشار اليها قائلا: "تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو" متى ٦: ٢٨. إن جمال هذه الزهور الطبيعية ليفوق كثيرا مجد سليمان، بل ولا تعادل كل الحلل التي حاكها وزخرفها أمهر الصناع هذا الحسن الطبيعي والبهاء اللامع في الزهور التي خلقها الله ولا تُقارن ببساطتها. ثم أردف يسوع متسائلا: "فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غدا في التنور يلبسه الله هكذا، أفليس بالحري جدا يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان؟" متى ٦: ٣٠. إن كان الله، الفنان الإلهي العظيم، يزين عشب الحقل الذي في يوم واحد يفنى، بشتى الألوان البديعة اللطيفة، فكم بالحري يعتني بالذين خلقوا على صورته ومثاله؟ فدروس المسيح هذه إنما تحوي توبيخا لذوي الفكر القلق والقلب الشاك الجاحد.

إن الرب يود لو كان كل أولاده سعداء، في سلوة من العيش، طائعين، كما يدل على ذلك قوله "سلامي أعطيكم، ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا، لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب" يوحنا ١٤: ٢٧، "كلمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم ويكمل فرحكم" يوحنا ١٥: ١١.

إن السعادة التي ينشدها الإنسان عن دوافع أنانية بعيدا عن طريق الواجب إنما هي سعادة مختلة التوازن متقلبة، ذاهبة، تضمحل تاركة النفس حزينة مستوحشة. ولكن في خدمة الله

دوام الفرح والرضى. فهو تعالى لا يترك المؤمن يسير في طريق غير مأمونة، يتأسف تأسفا باطلا، وينوح خيبة الآمال، لأن البار، وإن كان لا يتمتع بكثير من بركات هذه الحياة إلا أنه يتطلع الى الأبدية بفرح عظيم.
ولكي يمكن أن يكون للمؤمن، حتى في هذه الحياة، فرح الشركة مع المسيح وابتهاج السلوك في نور محبته وتعزية حضوره الدائم. فإن كل خطوة يخطوها في الحياة تدنيه منه وتهبه اختبارا أعمق في محبته وتزيده اقترابا من وطنه المبارك، موطن السلام. فلا نطرحن ثقتنا، بل لنزدد تيقنا ورسوخا أكثر من أي وقت مضى لأن "الى هنا أعاننا الرب" ١صموئيل ٧: ١٢. وهو سيعيننا الى النهاية. ولنعدد معالم الطريق لنرى كيف أعاننا الرب وخلصنا من يد المهلك. ولنتذكر مراحمه، والدموع التي مسحها، والآلام التي سكّنها، والهموم التي أزالها، والمخاوف التي بددها، والحاجات التي سدها، والبركات التي أسبغها، وبذلك نشدّد نفوسنا لمواجهة ما قد يعترضنا في مراحل الطريق الباقية.

لا بد من أن نتوقع تحيرات جديدة في الاحتدام المقبل، ولكننا، إذ نعيد النظر الى ما قد مضى وما سيأتي، نقول "الى هنا أعاننا الرب" "ولتعادل قوتك امتداد أيامك"(ترجمة تفسيرية) تثنية ٣٣: ٢٥. إن الامتحان لن يزيد صعوبة على ما نستطيع احتماله بالقوة الممنوحة. فلنعمل إذا حيث نجد العمل متيقنين من الانتصار بالذي يقوينا.

عما قريب سيفتح المسيح أبواب السماء على مصراعيها لاستقبال أولاد الله، فيطربون لسماع البركة التي يرددها رب المجد في قوله "تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم" متى ٢٥: ٣٤.

حينئذ يقف يسوع أمام المفديين مُرَحّبا بهم الى المنزل الذي يعده لهم الآن حيث يكونون في صحبة الذين انتصروا على الشيطان وصاغوا بنعمة الله أخلاقا كاملة. ولا يكون هناك الزناة الكذبة ولا عبدة الأوثان، وأما كل ما كان قد اعترى المفديين من نقص أو ميل الى الشر فيزول عنهم بدم المسيح. ويحل عليهم بهاء مجده الذي يفوق لمعان الشمس. ويضيء فيهم الجمال الأدبي، كمال صفاته تعالى، الذي تفوق قيمته، ذلك من المجد الخارجي. إنهم بلا عيب قدام عرش الله، يشاطرون الملائكة بنبلهم وامتيازاتهم.

فبالنسبة الى هذا الميراث المجيد "ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه؟" متى ١٦: ٢٦. قد يكون فقيرا ومع ذلك يملك في نفسه غنى وشرفا لا يملكهما العالم كله. إن النفس المفدية المطهّرة من الخطية، بكل قواها النبيلة المكرسة لخدمة الله لهي أثمن من الجواهر. وهناك فرح في السماء في حضرة الله والملائكة القديسين بنفس واحدة تنال الخلاص، فرح يعبر عنه بتهليلات النصر المقدس وأغانيه.


Bibliotheca Alexandrina
0450191